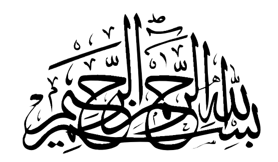
ليتني إمرأة



ليتني إمرأة

تأليف

عبدالله زايد


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-339-8



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

الحقيقة

عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ما يقطع الصلاة ثلاث الكلب والحمار والمرأة، فقالت عائشة رضي الله عنها: شبهتمونا بالكلاب والحمير، والله لقد رأيت رسول الله يصلي وأنا على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة.

رواة مسلم

الكذبة

إنني أخشى وأحذر من النساء أكثر من خشيتي وحذري من الشيطان، فالله يقول في القرآن في إشارة إلى النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، أما عن الشيطان فيقول الله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ !!

8

إهداء

إلى الذي انسكبت دمعة من عينه،

عندما أخفقت في سنتي الدراسية الأولى...

إلى الذي ضمني لصدره قائلا:

غدا ستكبر وتتعلم...

إلى الذي اعتبر

الأنا خطيئة.. والحزن فضيلة.. والصبر وسيلة...

إلى أبي...

رحمة الله

كلما أغمضت عيني شاهدت حلما، لا بل كابوسا، أكافح النوم بجهد بالغ، أخافه لأول مرة في حياتي، بل إني أخشى أن يأتي الموت وأنا نائم، لكن ما يعتريني الآن ليس النوم فحسب، إنه ألم من الهذيان والإغماءة التي أدخل في طقوسها مكرها، باكيا.

حالتي تزداد سوءا، وكلما غمضت عيناي دون إرادتي تأتي هذه الأحلام العتيقة الضاربة في القدم والسنوات الماضية، لتوقظني بهمجية وعنف بلا مبرر مقبول، أو سبب معقول.

وتتكرر هذه الحالة مرارا معي، هل بت مصابا بالحمى من شدة حرارة المكان، أم تراني مريضا بسبب جفاف كياني وجسدي، أم أن عقلي بدأ في الغليان والتلاشي تماما كما يتبخر الماء؟ كيف سأصبح دون عقل، بين جموع الناس التي كانت تهابني وتخشاني؟ كيف هو لسان هذه الجموع الشريرة وهي تنظر إلى من كان بالأمس يسوسها ويقودها، وهي تشاهده وسط هذه الفوضى وقد تشبثت رمال الصحراء بمنخره وحواجبه ورموش عينيه وأصبح شعر الرأس مغطى تماما بالأتربة؟!

ما زلت أعتقد أنني أتمتع بقواي الذهنية، رغم أن عقلي لا يجيد في هذه اللحظات سوى استرجاع الماضي، وأحداث وقعت منذ سنوات مضت من عمري، وهو قد أفلت لنفسه العنان، فلا أملك

السلطة في هذه اللحظة الزمانية لإيقافه، والحد من تقديسه للماضي والعودة إليه. كل الذي أستطيعه الإصغاء لقراره، أو ضرب رأسي بأقرب حجر!

نجود... أول قضية

كان عقلي قد شرع يعيد علي بوتيرة دقيقة ما حدث قبل سنوات طويلة، عندما أوكلت لي قضية التحقيق مع إحدى المتهمات بمحاولة زعزعة أمن المجتمع واستقراره. كنت حينها فخورا وفي غاية السعادة لأن هذا مؤشر على الثقة بإمكاناتي وبشخصي. فصول ذلك التحقيق كانت مهملة تماما من ذاكرتي، لكنها اليوم تتوهج وتلتهب في عقلي، كانت بطلتها متهمة بإفساد السلم الاجتماعي، بتنظيمها حركات تتنافى مع ثوابت المجتمع وقيمه. كانت تتمتع بثقافة كبيرة، متقدة ذكاء، جميعنا اتفقنا على نقطة ذكائها، ولكننا في ذلك الزمن أرجعناها إلى مكرها وخداعها.. في ذلك التحقيق الذي بدأته معها بتهكم وسخرية كان سؤالي الأول لها:

– ما اسمك كاملا؟

– في كل يوم يأتيني هذا السؤال صارخا.. مضى علي هنا شهران.. في كل يوم أسأل عدة مرات عن اسمي.. تعبت منه.. ومن تذكيركم لي به.

– حسنا.. هو مدون.. ويبدو أنه لا يربطك بهذه البلاد سوى اسمك "نجود" فمن يخرج عن تقاليدنا وعاداتنا مؤكد أنه ليس منا ولا ينتمي إلينا.

– كما توقعتكم، مفلسين.. تبعدون كل من يختلف في التفكير عنكم وتجردونه حتى من انتمائه الوطني.. هذه طبيعة كل إنسان

يمارس العنصرية وإقصاء الآخر، تريد أن تجردني من انتمائي الوطني، لأنني فقط أتبنى آراء لا تعجبكم؟! بالنسبة لي أنا بنت هذا الوطن بأسره بكل ترابه ومياهه وبحاره ومقدساته.

– مقدساته... أنت آخر من يتحدث عن المقدسات.. عموما سأتجاوز هذه النقطة حاليا، لكن هل تعلمين سبب وجودك هنا؟

– أعلم شيئا واحدا فقط.

– ما هو؟

– أنني في ورطة كبيرة!!

– ما سبب هذه الورطة؟

– العدالة.

– العدالة!.. هي سبب ورطتك؟!

– العدالة.. ليست موجودة.. لذلك أنا خائفة وأشعر أنني في ورطة.

– حسنا.. اذكري لنا اسما فقط.. اسما لأول من ألقى فكرة المطالبة بحقوق المرأة بينكن؟

– لم أفهم.

– أنا أريد مساعدتك، والآن لا يهمني سوى أن تعطيني اسما.. أي اسم.. أريد اسم أول من تحدثت عن التحرك للمطالبة بحقوقكن المهضومة المغصوبة، كما تزعمين!

– إذا كنت تسير في الصحراء ومعك عدد من أصدقائك وبعد أن اشتد الحر عليكم وعتلت الشمس كبد السماء.. فيم ستفكرون؟.. ما الذي ستقودكم عقولكم للتفكير فيه؟ ستفكرون مؤكدا في الماء.. في ظل يقيكم حر الشمس اللاهب.. أليس

كذلك؟! ستبحث غرائزكم عن كيفية المحافظة على هذه الحياة.. هل يوجد واحد منكم بادر بطرح هذا بينكم؟ هل هناك واحد منكم هو الوحيد فقط، الذي فكر، وذكركم بمثل هذه الاحتياجات الطبيعية؟ بالضبط مسألة حقوقنا الإنسانية، ومطالبتنا بالحصول على المساواة والعدالة.. هذه حاجات أساسية قد تكون مرت عدة أجيال من النساء لم تذكرها، لكنني أؤكد لك أنها فكرت دوما فيها، وتسألن دوما عن سر هذه القوة العظيمة التي تمنعهن أن يصدحن ويعبرن عن مطالبهن بشكل سلمي وهادئ.. هذه الأمور لا تحتاج إلى زعيم للتذكير بها أو إلى قائد ليوجه النساء إليها.. إنها من صميم تفكير كل امرأة تعاني، وفي وجدان كل إنسانة مضطهدة محرومة من العدالة والمساواة.

– حسنا.. حسنا... سأترك هذا السؤال جانبا.. وأسألك بالتحديد أنت: ما أول عمل منظم شاركتِ فيه يدعو إلى ما تسمينه حقوق المرأة؟

– منذ اليوم الأول الذي بدأت أستوعب فيه هذه الحياة.. منذ أن كنت صغيرة.. منذ أن كان أبي يتعب من أجل أن يوفر لنا لقمة لنأكلها.. منذ أن كانت أمي تستجدي الخبز من أجل أطفالها.. منذ أن كان الشقاء يحيط بنا.. وينعم الغرباء بخيراتنا.. منذ زمن طويل من الظلم الاجتماعي.. والقهر الثقافي.. والتدهور السياسي.. والفقر الاقتصادي.. منذ زمن سحيق.

– أعتقد أن السؤال واضح.. أسألك عن أول عمل قمت به خارج القانون؟

– قمت بسرقة بعض الألعاب الزهيدة من أحد الباعة الجائلين!

– لا... لا... أريد أن أسمع...

– اتركني أكمل إجابتي.. لا بد أن يكون لديك وقت لتستمع.. إن هذه هي وظيفتك.. أن تستمع وتسجل!

– حاولي أن تختصري.

– فرحت بهذه الألعاب كثيرا جدا.. وعندما دلفت إلى المنـــزل قمت أوزعها على إخوتي الصغار.. كانت الليلة الأخيرة من شهر رمضان وفي الغد العيد.. كان شيئا رائعا أن نفرح بهذه الألعاب مع قدوم العيد.. لكنني شعرت بغضب أبي داخل نفسي قبل أن أراه.. وعندما شاهدته أمامي.. قال: يا ابنتي.. لو كان معي نقود لما تركتك تمدين يديك.. ولما ضننت بها عليك وعلى إخوتك. كنت أحاول أن أتكلم لأطلب منه أن يصمت.. أن يقوم ويضربني.. لكنه كان يعتذر لي عن فقرنا.. عن بؤسنا.. لقد ارتميت في حضنه وجعلت أضربه بيدي الصغيرتين أطلب منه أن يصمت.. أن يصمت.

– تريدين أن تقولي إن أوضاعكم المعيشية الصعبة هي التي قادتك إلى مثل هذه الأفكار التحررية الغربية البعيدة كل البعد عن مجتمعنا؟! حسنا.. يمكنك أن تكملي قصتك.

– في عامي الأول في المدرسة.. كانت معلماتنا من جنسيات مختلفة، من دول شتى، غير مؤهلات تربويا.. ولم تكن المدرسة جيدة التجهيزات، والمباني صمُمت للسكن وليست للدراسة.. ولم تكن إلا عبارة عن غرف تم صف كراسي وطاولات فيها.. وأطفال يجلسون داخلها، بشكل مخنوق، وتكدس عجيب.. الآن أستغرب كيف حدث هذا؟.. ولماذا؟.. كنا أطفالا صغارا.. ننتمي لأسر فقيرة بائسة.. لذلك لم نحظ بأي اهتمام.. كانت مياه الشرب فاسدة مختلطة بقاذورات القطط والطيور.. وبها أتربة.. وحشرات صغيرة. كانت معلماتنا قاسيات جدا.. دوما يضربننا.. ويتفنن في عقابنا..

وكنا نتألم ونبكي ونتوجع.. ولكننا نظن أنها ضريبة العلم.. والسعي للأفضل.. لذلك صبرنا.. أو حثتنا أهلونا على الصبر.. أو لم يكن لديهم خيار آخر يمكن أن يساعدنا.

– كل حديثك ليس له علاقة بالتحقيق!

– عندما كبرت قليلا كان إخوتي قد تخرجوا في الثانوية.. لكنهم تمردوا على أبي وتنكروا له.. وقسوا عليه.. شعرت بغربة أبي وحيرته وقد غدا عجوزا... إن المناهج التي تعلمناها لم تكن تغرس حب الأب والأم والأسرة في قلوبنا.. كانت عبارة عن حروف وكلمات مصففة لا طعم أو ذوق فيها.. لا بد أن يكون فيها خلل.. الآن أفهم أنني لم أستفد من هذه المناهج أي قيمة إنسانية حياتية.. فهي لم تعلمني الحب.. لم تعلمني التسامح.. لم تعلمني.. كيف أعيش مطمئنة أمينة.. صادقة.. وفية.

– .. وتريدين أن تقولي إنها لم تغرس حب الوطن.. إنها لم تنم حب الوطن؟

– لم نعرف في الجغرافيا إلا بلدا يحده عدد من البلدان الأخرى.. في الحقيقة كانت هذه البلاد هي أيضا جزءا من وطني.. لم يتم تعليمنا أننا ننتمي لأمة كبيرة عظيمة.. أمة متلاحمة قدرها واحد.. ومصيرها واحد.. كان تعليمنا منفصما عنا.. غير صادق.. أو أن مناهجنا كانت كاذبة.. ففقدت مصداقيتها منذ الوهلة الأولى.. كانت مناهجنا الدراسية عبارة عن اجترار للمعلومات.. كيف نعبد الله.. وفي المرحلة التالية.. كيف نعبد الله.. وفي المرحلة الأعلى كيف نعبد الله... ونحن نرى آباءنا أميين.. لا يقرؤون ولا يكتبون... ويعبدون الله أصدق وأطهر منا نحن المتعلمين... فماذا كانت تحاول أن تقول لنا مناهجنا الدراسية؟!

– إن صبري بدأ ينفد.. حدثيني عن تاريخ أول عمل قمتِ به في نطاق حركتكن الاحتجاجية على أوضاع المرأة؟ هل تفهمين؟ أريد تاريخا، تاريخا... هل كلامي واضح؟

– التاريخ... حتى مادة التاريخ التي تعلمناها.. تاريخ مزور مملوء بالكذب والحروب والدماء.. كيف تحدث أطفالا عن الدولة الأموية أو العباسية.. التي قامت على القتل وسفك الدماء.. ثم تقول لهم إنها خدمت الإسلام والمسلمين.. كيف تقول لي في منهج الفقه إن الغناء حرام.. ثم أعلم أن خلفاءنا في الدولتين الأموية والعباسية اللتين خدمتا الإسلام.. كانوا يتمايلون مع أصوات الغانيات.. ويتراقصون طربا.. وهياما... ثم كيف تحدثني عن المساواة التي دعا إليها هذا الدين في مادة تفسير القرآن.. ثم أتعلم أيضا من مادة التاريخ أن خلفاء الدولتين العباسية والأموية اللتين خدمتا الإسلام.. كانوا من أبرز تجار الرقيق.. وفي عهدهم الميمون كانوا يصرفون ملايين الدنانير على أجمل النساء السبايا.. في ظلم وقهر للإنسان وإنسانيته.

– فعلا أنت إنسانة غبية.. هل ترغبين في أن أفصل لك جريمة تزج بك في السجن لسنوات طويلة أو أن يحكم عليك بالموت؟ اعلمي أن لديَّ عشرات الجرائم الإرهابية راح ضحيتها أطفال ونساء.. أجيبـــي عن أسئلتي فقط؟

– إنني أعتقد أنني ميتة الآن.. إنني مخنوقة.. ومنذ زمن سحيق.. لا أشعر بوجودي.. ولا أشعر بطعم الحياة.. إن هناك من قام بإفساد معيشتي... إن الحياة لا نعيشها إلا مرة واحدة.. فإذا تسبب أحمق في فقدك لها.. فلا مجال لتعويضها...

– فعلا صبري بدأ ينفد، وفلسفتك بدأت تفقدني صوابي، فماذا تحاولين أن تقولي؟

– لا تصدق أبدا أن إنسانا ذاق طعم الموت مرارا.. يتمناه للآخرين.. الإنسان بطبعه مسالم.. والقيم المثلى في قلبه كبيرة.. لكننا نحن من نفسده.. من نجعله مسخا.. وهيكل من اللامبالاة بالآخرين... لا تصدق أن إنسانا ذاق طعم المرارة والظلم.. يتمنى أن يذيق الآخرين هذا العلقم الشوكي... لكن.. لكن.. هذا الإنسان المضطهد.. المقهور.. المسحوق.. قد يبحث عن الإنسان في قلبه... فلا يجد سوى أنقاض إنسان.. بقايا إنسان.. هذا سيثيره.. سيشعره دوما أنه حيوان.. أنه ليس بشريا.. سيكون مريضا.. مريضا جدا... وسيكون مستسلما.. ومهيأ ليس للانتقام.. وإنما للخلاص.. والتحرر.. وبالتالي هو إنسان مريض، وليس مجرما!!

– لم أفهم كلمة واحدة... ويبدو أنك تقودين هذا التحقيق إلى منعطف ودروب شائكة، ويبدو أيضا أنني سأضطر.. مع الأسف لاتخاذ إجراءات أخرى...

– على سبيل المثال أنت..

– ما شاء الله... هذا تطور كبير... أنا؟!

– نعم أنت.. أنت تسألني بتعالٍ.. بتكبر... بعد ساعات ستذهب لأطفالك.. ثم تجلس مع أصدقائك... سيسألونك لماذا أنت متوتر؟... فتقول: توجد واحدة من المغتربات ممن ألقينا القبض عليهن لم أكمل تحقيقي معها... أنا بالنسبة لك لست إنسانة.. أو كائنا يستحق الرحمة.. بالنسبة لك أنا مسخ.. مجنونة.. مجرمة تريد الخروج على القانون والمجتمع... أنت تحقق معي وكأني قد قتلت العشرات، أو فجرت المئات.. لديك يقين أنني على خطأ.. إذا لم تصدقني.. عد لأسئلتك... ستجدها تفوح برائحة اليقينيات.. تفرح بأي معلومة عابرة.. وتوظف إجاباتي لما هو في ذهنك لا أكثر... بعد ساعات...

ستكون في حضرة أطفالك.. ولن تتذكرني.. ولن تشعر بحزني على شح الطعام لدى صغاري.. وبعد ساعات سيتراقص أطفالك بين يديك.. لكنك لن تتعاطف مع أطفالي المنـــزوين حزنا وألما وبؤسا... فأنا بالنسبة لك مجرمة.. ولا أعلم كيف تحولت الأستاذة الجامعية الأكاديمية إلى مجرمة يحقق معها فقط لمجرد أنها تنادي بتحسين أوضاع المرأة... لم يكن همك الحقيقة والبحث عنها... كان همك اعترافي وحسب.. وخلاصك حتى لا تذهب سهرة الخميس سدى... ولذلك أنا مستغربة جدا جدا.. وهو ما يبعث في نفسي سؤالا واحدا فقط...

– ماهو؟

– أين تخبئون ضمائركم... وفي أي قرار تضعونها؟ ومن هذا الإنسان في قلوبكم؟

– كاتب الضبط.. هل دونت كل شيء دار هنا؟

– نعم سيدي.. تم تسجيل كل شيء حرفيا.

– سجِّل إذن: رفع المحضر في ساعته وتاريخه... ويجدد سجن المتهمة شهرين آخرين على ذمة القضية!

– أي قضية يا رجل؟ أي قضية؟

* * *

أم نجود

طوال تسلمي ملف التحقيق مع نجود ومكوثها في السجن لم يسأل عنها أحد، فزوجها قد توفي منذ سنوات تاركا أربعة أطفال، وكانت نجود تعول أطفالها وأمها التي لم تمل السؤال والتردد الدائم على مركز التحقيق. واليوم وأنا أعيش هذه المحنة العصيبة القاسية في حياتي ويحاصرني الموت ظمأ.. تلتهب ذاكرتي بكلماتها وحماسها في الدفاع عن ابنتها.. رغم مرضها ووهن صوتها وسعالها المتواصل، أتذكر أنه في مرة من مرات حضورها للسؤال عن ابنتها طلبت إحضارها للتحقيق معها، وقد سألتها قائلا: يا خالة ما رأيك فيما تطالب به نجود، أن تكون نساؤنا مثل نساء الغرب؟ فردت بحدة قائلة: كذبت، فابنتي التي ربيتها تطالب بحقها وحق أي امرأة في بلادنا تطالب بالعدالة والمساواة، فإذا كانت نساء الغرب يطالبن بمثل ما تطلبه نجود فهذا حقهن... عندها انتفضت من مقعدي وصرخت فيها: احذري، أقصد أفكارها التغريبية الشيطانية.. فردت بضحكة قائلة: شيطانية! لماذا؟ هل لأن أفكارها لم تعجبك؟ أيضا شاركتها هذه الأفكار التي تصفها بالشيطانية، فصرخت فيها مرة أخرى: سيحكم عليها بالسجن لفترة ستة أعوام والجلد والفصل من عملها؟ بسبب هذه الأفكار، فأجهشت بالبكاء وهي تقول: ليتني أفديها بروحي.. ليتني أرتاح قبل هذا اليوم ويأتيني الموت.. أجبتها متعجبا: الموت راحة! فردت: صدقني إنك تقترف خطأ كبيرا بوضعك ابنتي

نجود في السجن ومحاكمتها ظلما.. تسجنها وهي أحق بالحرية، وتظلمها وهي أولى بالعدل. إن هذه الإنسانة لا يمكن أن تعرف مفردة الكراهية، فهي مهمومة بوضع لقمة العيش في أفواه صغارها تغذينا بالأمل والبؤس يحاصرها، وتبشرنا بالمستقبل وحاضرها مظلم، تغمر يومنا بالابتسامة وقلبها ينـــزف. هذه الإنسانة لا تعرف الإرهاب والقتل، ومنازعة الآخرين، هذه الإنسانة تستحق أن تقف بجانبها، لكن كيف تقف إلى جانبها وأنت متدثر بهذا العز الواهن، وهذا الكبرياء الزائف؟! لكنني أعرف لماذا أنت وأمثالك تطاولتم على ضعف ابنتي ومارستم في حقها هذا الظلم الفادح لدرجة وصفها بالخارجة عن مبادئ مجتمعنا وقيمنا وديننا، بل إصدار الحكم عليها بالسجن، وكأن حياتها ليس لها اعتبار، أو قيمة. أنا أخبرك لماذا: لقد اكتشفت أنت وزبانيتك أن نجود ليس لديها إخوة يسألون عنها، أو أبناء قبيلة يتجمهرون للذود عنها، لأنك فهمت أنها لا تنتمي إلى قبيلة محددة، وبالتالي انعدم رابط الولاء القبلي لها، ولذلك لم يكن هناك من يتحمس للذود عنها. هذه حقيقة مع الأسف أعرفها وتدركها نجود منذ أمد، لذلك لم تعول أبدا على مدد من السماء يأتيها.. واليوم فقط أتساءل عن حاجتها، بل حاجتي أنا وصغارها إلى العون والحماية ما دمنا جميعا نستظل بالشريعة الإسلامية التي تتشدقون بها ليلا ونهارا، وأنها تحقق المساواة والعدالة للجميع، أم تراها الكذبة التي رددتموها حتى صدقناها فما هو نظامنا إذا لم يكن عبارة عن قانون الغابة، الذي يتمثل في القبلية ونظامها المفلس الذي يقوم على طبقية بغيضة.. لم تحقق للإنسان الذي حاول أن يستظل بها أي معيار وتقدير لإنسانيته.. بل إنها سحقته وكرست العلو لزعيم القبيلة والأعيان.

جعلت أنفاسي تتصاعد.. كانت ناهضة تريد المغادرة قلت للحارس وأنا أتصبب عرقا: لا تجعلها تغادر.. اسجنها.. إنها مجرمة.. لم أسمع بهذا الحجم من الكراهية لوطني الحبيب بقدر ما سمعته منها، إنها خطر على المجتمع.. يجب أن تُستأصل، قيدوها.. اسجنوها... وغني عن القول إن الجميع كانوا ينظرون إليّ بذهول أمام كبر سنها ومرضها.

بعد انتهاء ذلك التحقيق مع نجود، كانت كلماتها ترن في أذني لقد هزتني أفكارها، لكنني لم أتعاطف معها، مضت سنوات لا أعلم كيف انتهت محاكمتها.. لكنني سمعت أنها اعترفت بأمور كثيرة... كنا نعلم جميعا أنها اعترفت بما تعتقد أنها أعمال شرف ومهام عظيمة. في هذه اللحظة بالذات نبع سؤال عجيب لم أفكر فيه من قبل، لماذا اعترفت نجود بفخر واعتزاز بتزعمها حركة للمطالبة بحقوق المرأة؟ بل بنقدها القاسي للنظام والقانون اللذين يسير عليهما مجتمعنا؟ مما جعلها تعرض حياتها لمحاكمة قد يصدر فيها حكم إعدامها تعزيرا؟ اليوم وأنا وسط هذه الكثبان تتضح الصورة في ذهني، أقول لعلها فكرت في الخلاص والانعتاق.. لعلها عدَت في الموت راحة وسموا وانطلاقا... بل لعلها عدته حرية تجد فيها ذاتها وتحقق خلالها طموحاتها.. أو لعلها اعتبرته الشيء الوحيد الذي يحقق لها الشعور بالمساواة والتماثل مع الآخرين.. لعلها بحثت عن حقيقة واحدة لم تعترف بالطبقية والتفاضل بين البشر، حقيقة تعترف بالإنسان الواحد، حقيقة لم يستطع الإنسان الوصول إليها ومسها وتغيير جوهرها، حقيقة ثابتة لم تتغير أو لم تتبدل في عالمنا الماضي أو المعاصر، وبالتالي كانت بعيدة عن نـــزقنا وعن أنانيتنا.. حقيقة لا تميز بين البشر ولا تفضل جنسا على الآخر أو تحب لونا أكثر من

لون، ولعل نجود وجدت هذه الحقيقة متمثلة تماما في الموت.. ونــــزفه.. وعمقه.. وقوته.

أليست هي التي قالت لي بحدة في واحدة من مرات التحقيق الطويل الممل: لماذا تهددني بالموت؟ حسنا، أنا لا أخاف الموت.. أنا أتمنى أن أموت، لأرتاح من هذا العذاب.. أتذكر أنني أجبتها بضحكة عالية: يقال إن للموت سكرات قاسية ولحظات شديدة، وأعتقد أنه حتى في الموت ستعانين وستتألمين.. أين المفر؟ أين المفر؟ وجعلت أضحك وجميع من كانوا حاضرين يضحكون هم أيضا. وبعد تردد وكثير من السعال الشديد تمالكت نفسها وعادت تقول: صحيح أنا وأنت متساوون فقط في الموت، فالموت جامد دون مشاعر فهو لا يتأثر بالعظيم.. ولا يتعاطف مع الوضيع.. ولا يشفق على الفقير.. ولا يرجو رضا الغني أو الأمير، ثم جعلت تسعل مرة أخرى وعادت تواصل حديثها: صحيح أن الموت قصة قديمة موجعة في مسيرة الإنسان.. إلا أنه رغم هذا عادل.. يصفع كل إنسان بلا هوادة.. فلا يجامل أو يؤجل قراراته.. أو يبطئ مسيرته.. أو يؤخر مهمته... والموت ينظر لنا نحن البشر.. كل البشر.. نظرة واحدة، بلا تمييز.. أو تعقيد.. أو تدقيق... فهو يقوم بمهمته بسهولة وببساطة متناهية... سواء الذي بين يديه نبيل أو مسكين.. أو كان الذي بين يديه شريفا أو حقيرا.. أو كان الذي بين يديه كبيرا أو صغيرا.. بريئا أو مجرما.

آه إنني أتذكر أيضا – وبوضوح شديد – كلماتها الأخيرة في ذلك التحقيق وهي مكبلة بالقيود والحرس يحيطون بها ويسحبونها إلى الخارج، قالت صارخة: بعد ساعات... ستكون في حضرة أطفالك.. ولن تتذكرني.. ولن تشعر بحزني.. بعد ساعات سيتراقص أطفالك بين يديك.. لكنك لن تتعاطف مع أطفالي المنــــزوين حزنا وألما

وبؤسا... فأنا بالنسبة لك مجرد مجرمة. في الحقيقة نجود كانت بطلة في زمن ليس زمنها، اعترفت بشرف وسمو أنها تتزعم هذه الحركة، قالت: إذا كانت بعض الأخوات قد قلن إنني أنا الزعيمة فهو شرف أشكرهن عليه، ومهمة أسأل الله أن يعينني على أدائها. هكذا كتبت في محضر التحقيق، وكأنها تكتب على كراسة تحضير المواد الدراسية التي تعلمها التلاميذ ويبدو أنها نظرت إلينا كما تنظر إلى تلاميذها إننا في حاجة إلى التعلم.. وإلى مزيد من الجهد للتطور. فيا لها من نظرة عميقة وإنسانية.

هذه المحنة التي أعيشها أوجدت لدي سلوكا جديدا لكنه طبيعي، فقد بت أعشق وأنتظر ليل الصحراء، وأكره النهار وأخافه، فمع الليل تأتي البرودة والهواء النقي العليل، أما في النهار فقسوة الشمس ولهيبها يعذبانني ويلهبان جسدي.. لكن من قال إن هذه المحنة أكسبتني هذا السلوك فحسب؟! بل إنها علمتني سلوكيات جديدة تماما لم أعهدها من قبل، ولم تكن في أي يوم من أيام حياتي الماضية ضمن تفكيري واهتماماتي.. مع بزوغ فجر هذا اليوم أفتح عيني بتثاقل وأجد الشمس.. نعم إنها الشمس.. ولتوها تشرق من بين الكثبان الرملية، وبلونها البرتقالي الآسر، لطالما تغنى الشعراء بهذا المنظر، لطالما أسرهم هذا الشروق الجميل وهو يتحد مع اصفرار الكثبان الرملية بتموجاتها وتعرجاتها الهندسية الخلابة. بالنسبة لي، والآن فحسب، إنه منظر مخيف بكل ما تعني الكلمة، كيف لا وسيعقب هذا المنظر الجميل شمس حارقة، وحرارة ملتهبة.. لكن محنتي لا تتوقف هنا، فعدد من حبات الرمل تطاير بسبب هبوب نسمة صباحية خفيفة دلفت إلى عيني، فأدمعتهما، يا للهول ماذا سيحدث بعد اشتداد الشمس وهبوب عواصف ترابية؟.. ما أضعف

الإنسان! ما أقل حيلته! وما أبسط وأبخس ما قد يؤذيه! ما أعظم ما يوهم به نفسه من الكبرياء، وما يحيط به كيانه من القوة والتجبر، وهو في الحقيقة كائن ضعيف لا حول له ولا قوة!

لعلي الآن فقط أيقظت الإنسان في داخلي بعد أن ردمته بالقسوة وأنهيت وجوده بالغضب والأنا، لعلي لم أفعل هذا بمحض إرادتي إنما هي هذه الصحراء الحالكة التي علقت بكثبانها، لكنني وكما يبدو كبرت وأصبحت كهلا خرفا أمضيت شبابي في متفرقات من عدم المبالاة بالآخرين وعدم الاكتراث بآلامهم. والآن فقط أشعر أن هذا العمر كان سريعا جدا، عندما أستعرضه أجده أشبه بوقت قصير لكن هل كان وقتا من الألم.. من الحزن؟! إطلاقا.. كنت منعما ثريا، لكنني رغم هذا لا أجد الآن في ذهني المتعب سوى الذكريات التي أهملتها والأحداث التي دسستها، لا أجد في ذاكرتي أيام سويسرا وسهرات لندن وليالي النمسا وأمتع البرامج السياحية، وصداقات السفر، وأفخر أنواع المشروبات، وألذ المطاعم، وأرق النساء! لا أجد في ذاكرتي المتهالكة سوى أمثال نجود وأمها، ومناظر البؤس في عواصم الإنسان، تلك المشاهد التي كنت أقرف منها وكنت أقول: إن هذه المخلوقات يجب التخلص منها بمبيد الفئران، فيضج الجميع من حولي بالضحك، لم أفهم معنى أن تحتقر أخاك الإنسان.

* * *

دماء.. من أجل لقمة العيش

بعد أن انتهى اليوم الرابع وأنا ضائع وحيد في هذه الصحراء التي أحببتها، وكنت معتقدا براعتي في طرقها ومسالكها، وكنت أعتقد أنها تؤدبني لكنها لن تجرؤ على قتلي، أجزم الآن أنها قد عقدت العزم ليس على قتلي فحسب وإنما على تعذيبـــي أولا.. وللصحراء أحكامها العجيبة والقاسية لكنها بكل تأكيد ليست في قسوة قلبي، ففي هذه اللحظات تمر بذاكرتي قصة لمعلمة تم تعيينها لتزاول مهنة التدريس في إحدى قرى الصحراء، وعندما توّجهت وزوجها وطفلتاهما، لتلك المدرسة معتقدين أنها أشبه برحله برية يحملون فرحة الوظيفة الجديدة وهذا الرزق الذي هطل عليهم من السماء، أضاعوا الطريق وانعطف الزوج بعيدا عن تلك القرية وتاه وسط كثبان الرمال. وبعد أن مضى بعض الوقت توقفت سيارته عن الحركة، قد تكون قد علقت بالكثبان الرملية أو نفد الوقود منها.. مكثوا أول ليلة في صحراء لا ترحم وعندما بزغ فجر اليوم الثاني كانت للمعاناة فصول أخرى فقد اشتد صراخ الصغيرتين وازداد قلق الزوجة، فلم يتمكن الأب من تحمل مشاهدة عذاب طفلتيه وزوجته، لذا قرر تركهم في السيارة والسير على قدميه باحثا عمن يمد لهم يد المساعدة. في تلك اللحظات تحديدا انتصبت الشمس كبد السماء في أشد حالاتها غضبا وفي أحلك أوقات الإنسان ضعفا، تماما كما هو حالي الآن. ظل هذا المواطن الصالح يسير وسط الكثبان حتى انهارت قواه

وسقط، مضت ثلاثة أيام أخرى كان، الزوج قد فارق الحياة.. متسائلا: لماذا؟ ثم لحقت به طفلته الصغيرة في رحلة الآخرة، في هذه الأثناء قاد الرب رجلا من سكان الصحراء بعد أن شاهد سيارة تلك الأسرة فهب نحوها ووجدهم وهم في حالة يرثى لها، فقام بإيصالهم إلى مستشفى القرية.. فنجت الزوجة وابنتها المتبقية من الموت. لم تنته فصول هذه القصة، لأنها تواصلت عندما قرأنا في كبريات الصحف اليومية، مناشدة هذه المعلمة للمسؤولين – وأنا أحدهم – أن يتم تقدير ظروفها وأن يتم نقلها إلى مدرسة بقرب أسرتها، في اليوم التالي خبر في المكان نفسه استجابة المسؤول لتوسلاتها وندائها ونقلها إلى حيث تريد. الذي يبكيني الآن.. والآن فحسب أنني عندما سمعت بهذه الحادثة علقت قائلا: كيف يضيعون أليس لهم عقل؟ واليوم يعلمني الرب أن هذه الأسرة النبيلة، أفضل وأشجع مني فقد ذهبت إلى الصحراء من أجل لقمة العيش التي غمست ولوثت في رمال لا ترحم، أما أنا فعالق الآن وسط كثبانها لأنني كنت في رحلة من أجل اللهو والصيد ومطاردة الحبارى. لعل هذه الحالة التي أعيشها الآن تذيب الصديد الأسود والعوالق القذرة من نفسي وتطهرني لتجعلني أتساءل.. عن أمر وطني العجيب، فبدلا من إجراء تحقيق وتساؤل: لماذا يتم تعيين هذه السيدة دون تزويدها بخريطة أو وصف دقيق لمدرستها، أو إبلاغها بخطورة مهمتها؟! ثم أين فرق البحث والطوارئ والدفاع المدني، بل أين المسؤولون الذين عينوا هذه السيدة في مدرسة تقبع في الصحراء أين هم جميعا – عندما اختفت مدة تجاوزت الأيام الأربعة – من البحث عنها؟!

إنها مجرد مواطنة بسيطة لا قيمة لها ولا لزوجها ولا لطفلتهما الصغيرة التي قضت في هذا الحادث، حتى يخرج أحد المجرمين ويدعي

أنه متفضل عليها، وهو في وطن آخر يحاكم ويجرَّم! أين كان ضميري وأنا كنت في ذلك المنصب المرموق؟ ولماذا لم أصدح بمثل هذه الكلمات في حينها؟.. الآن تذكرت تلك الأسرة لأني أعيش محنتهما فشعرت بألمهما. في الحقيقة لا أعلم هل يجب على كل مسؤول أن يجوع حتى يشعر بالفقراء؟ هل يجب أن يعاني أطفاله العوز والحاجة إلى الملبس والتعليم الجيد من أجل أن يعمل على حل مشكلات التكافل والتأمين والصحة والتعليم؟

* * *

العنود: يوم ظلمي عيد

صدقوني إذا همتم في الصحراء، فلن تكون معاناتكم الوحيدة مع العطش ولهيب الشمس، بل عذاباتكم ستكون شاملة وفي أجزاء متفرقة من أجسادكم، ستضربكم الآلام في كل مكان ستمس عقولكم وتعذب أرواحكم، هذا هو رأسي الذي طالما اشتعل غرورا وتعاليا يشتعل الآن ألما حد الجنون، هذا الصداع اللعين يحيط بأرجاء رأسي كافة، أشعر بنبضات كل عرق في رأسي تنضح بالألم، تحيط بي آلام لا أطيقها وأوجاع لا أتحملها، حرارة الشمس لا تقتلني إلا ببطء ولا تنهي حياتي إلا برجفات متتالية من الآهات والحسرات، وكأن معاناتي مع الظمأ وأوجاع في عظام ساقي ويدي والتي لا أعرف ما يبررها كأنها لا تكفي، حتى تتداخل وتمتزج معهما أوجاع الرأس القاسية العنيفة.. يا الله إن الصداع يشلني تماما، تماما.. الصداع يقتلني، وأشعر أن جسدي بأكمله يلتهب، وأنا ممسك رأسي من شدة الألم. أتذكر عندما أحضرت فتاة في مقتبل العمر وهي مكبلة بالأصفاد اسمها العنود، وأول كلمة قالتها إن الصداع يشل رأسها ويعصف بها ويفقدها توازنها، فرددت عليها ضاحكا مستهزئا: لعل هذا بسبب عدم النوم وأنت تفكرين في فارس أحلامك الغبي.. هذه الفتاة ألقي القبض عليها وهي بصحبة رجل وجاء تكليفي بالقضية لكونها حساسة، فهي من أسرة مخملية ووالدها أحد أهم رجال البلاد، وعندما وضع ملف قضيتها أمامي كانت هناك تعليمات

خاصة جدا وحرص بعدم خروج أي معلومة، وعندما أجلست أمامي، نظرت إليها ففوجئت بأنها رافعة رأسها بشموخ وكبرياء، بغير ما اعتدته ممن أحقق معهم حيث يكونون منكسرين مطأطئي الرؤوس! فقلت لها: يجب أن تخجلي وتشعري بالندم فلقد اقترفتِ جرما كبيرا بحق أسرتك الكريمة، وقبل هذا في حق دينك، فوجهت عينيها نحوي وهي تقول: ديني! ماذا تعرف أنت عن الدين؟ أنت مجرد دمية يحركها أبي كيفما أراد، لو أمر الآن أن تطلق سراحي ستفعل.. لا تتحدث عن أمور هي أكبر منك.

كدت أشتاط غيظا وأنا أجيبها: رائع.. مومس، وطويلة لسان!

فردت قائلة: إذا كان هذا يريح أعصابك، فلا بأس بأن أكون مومسا لكن أرجوك أن تحاول أن تنمي ثقافتك وتعرف كلمة "مومس" بالتحديد ماذا تعني؟

قلت لها: حسنا وأنت تتمتعين بمثل هذه الثقافة لماذا لم تساعدك وتمنعك من الانجراف إلى هذا الخطأ، حيث دستِ كل الحدود.. الدين، العرف، والمجتمع.. فتم اصطيادك مثل الفأرة مختبئة في حضن رجل غريب.

ردت: هذا الرجل هو قدري، وأنا قدره، لا أعتبر أنني ارتكبت أي خطأ.

أجبتها: علاقة خارج إطار الزواج الشرعي، ولم يكن خطأ؟ أعتقد أن ثقافتك لا تساعدك أبدا بل تخذلك.

ردت: سمها ما تريد، ألم تقل في بداية حديثك إني مومس، إذن لماذا تحاول أن توهم نفسك بأنك تحقق معي، بالنسبة إليكم الحكم جاهز، إنه السجن والجلد، أكمل إجراءاتك وسأخرج وستلقون القبض عليَّ معه مرة أخرى.

أجبتها: لا أريد أن أحبط هذه الثقة، لكنني مضطر أن أخبرك أن فأر أحلامك هو من سيتخلى عنك بعد أن نقيم عليه شرع الله.

انفعلت العنود وهي تقول: شرع الله!! أبعد ما يكون عنك.. إنه شرع تسيرونه على هواكم، ليس لله دخل فيه.

كنت أرد عليها وأنا ضاحك نشوة بقدرتي على استفزازها: ألم يقبض عليك وأنت مع ذلك الرجل؟ ألم تعترفي؟.. ألا تعد هذه خلوة غير شرعية؟ تعلمين أن هذا محرم شرعا!

فترد وهي ما زالت متوترة الأعصاب: إنك لا تسأل هل هي نــــزوة، طيش شباب، أم أنه حب.. ومنعت من حقي في اختيار شريك حياتي؟!

قلت لها: مشكلتك أنك تنسين من أي عائلة أنت؟ أنا أشفق على أبيك وإخوتك، لقد جلبتِ لهم العار، ألا تخجلي من نفسك؟ لقد تسببت في أذى بالغ لأناس أَحبوك.

كانت العنود تعيش حالة من التخبط الفكري وهي تجيب: إن الهوة بيننا كبيرة، ملف القضية تضخم حتى ضج من الأوراق.. مضت خمسة أسابيع.. وأنتم تضيعون وقتكم.. لماذا؟ لأنكم تريدون كسر شيء داخل نفسي، تريدون سماع كلمة واحدة من الندم، من الأسف والتراجع، حتى تطيروا بها نحو جلادي نحو أبي نحو العائلة التي تصفها بالمجد والسؤدد، التي ترفض اختيار ابنتهم شريك حياتها، فتضع قضها وقضيضها لدحرها.. خمسة أسابيع وأنا هنا رهن التحقيق لم أذهب إلى محكمة أو أعود إلى المنــــزل أو أن أرحل إلى سجن، خمسة أسابيع وأنتم كل يوم تأتون تتهكمون وتمضون.. لن تفرحوا بكلمة ندم.. كلمة تراجع.. إنني أحبه.. وأموت من أجل اختياري.. فلأمكث في السجن مليون سنة.. فلتجلدوني مئات الجلدات، اشتموني... افعلوا ما تريدون.

حاولت أن أكون متماسكا وأنا أجيبها: هل تعتبرين أنه مازال لديك منـــزل، أبوك وإخوتك تبرأوا منك، في الحقيقة لا نعلم ماذا سنفعل بك بعد أن يصدر الحكم عليك وتنتهي محكوميتك؟ قد تلقفك الشارع، أفخر السيارات والملابس، وألذ المأكولات والمشروبات أعتقد أنك فقدتِها إلى الأبد.

فترد بيأس: إذن اتركوني أتزوجه.

فأقول لها: أنت بالنسبة لفارس أحلامك مجرد جوهرة ثمينة، جمال ومال ونسب، وبعد أن تفقدي المال والنسب ويتلاشى هذا الجمال بسبب الهم والحزن، وطبعا عدم وجود المساحيق الفرنسية صدقيني هو الآخر سيقذف بك.

فتجيب وهي تحاول التماسك: لا يمكن أن تفهم لقد هدد بالقتل وتسببت له في معاناة كبيرة وهو الآن في السجن، لقد أقسم أبي أنه سيقتلني قبل أن أنجب منه لأن أبي يعتبر أن دمه يجري في عروقي وهو لن يسمح أن يتلوث مع حقير وكادح.. المال يشكل لديك مشكلة أنت وأمثالك.. شيء عظيم ولا تنتبهون لجمال الروح وأهمية المساواة، لذلك تتوقع أن هذه إذا فقدها إنسان فقد أهميته فقد جوهره وقوة حضوره... لا اطمئن سأتزوج بمن اختار قلبي، وأسافر معه في أرض الله الواسعة.. حتى ولو قبضتم علي ألف مرة.

رددت عليها: مع الأسف تعليمك لم يساعدك؟

فتجيب: مع الأسف إنك لا تفهم أن التعليم ليس له علاقة بقرارات القلب والروح.. بالتعليم أدركت أهمية استقلاليتي، وأهمية اختياري، وأهمية أن أكون حرة مسؤولة عن تصرفاتي.

قلت لها: غدا سنحيل أوراقك للقضاء.. وأنا متأكد أنك لن تجدي أي تعاطف.

ردت بحدة: يوم ظلمي هو يوم عيد، لا أتوقع أي تعاطف أو أي مساعدة لأنني أدركت فقدها منذ أن تحول أبي وأمي وإخوتي إلى أعداء بسبب اختياري ومحاولة أن أكون إنسانة مستقلة، أما قضاؤك الذي تتشدق به فقمة عدالته هو قمعي وجعلي أمثولة وعبرة لأي فتاة تحاول أن تقول أنا هنا أنا أتنفس، لذلك عدالته سيقيمها على عجزي، وينفذها على أنقاض خوفي، لكنه لن يصل إلى تغيير جوهر الإنسان وحاجة الإنسان، وعاطفة الإنسان.. لأنه ببساطة بعيد عن الإنسانية.

نهضت وأنا أقول: فعلا أنت عجيبة، يمكن لأي من أبناء كبار رجالات البلد أن ينظر إليك ويرغب فيك زوجة، فتعيشي في المستوى المعيشي نفسه الذي نعمت به وسط أسرتك، فعلا أنت غبية!

فردت وهي تمسح وجهها، ومن الذي اخترته زوجا لي؟ هل هو رجل من المريخ.. تبا لكم إنه من وطني.. إنه من بلادي.. تبا لكم، ألا تخجلوا من هذا التمييز؟ ألا تخجلوا من هذه الطبقية وأنتم تتشدقون بالدين والمساواة والعدالة والناس سواسية كأسنان المشط؟ تبا لكم! أي وحدة وطنية تزعمون؟ أي مجتمع واحد تقولون.. وأنتم تقسموننا ألف قسم.. ومليون قبيلة.. ومليار أسرة وعائلة؟!

* * *

الآن... إنني أهذي!

رغم أن سنواتي التي أمضيتها في العمل في المجال الأمني، لم تكن طويلة، إلا أن المواقف التي مررت بها كثيرة... في الحقيقة إنني قد اخترت العمل في وزارة الأمن الداخلي، لأنها تشبع شيئا في داخل نفسي.. تشبع الغرور.. والتعالي.. فنظرات الناس لكبار مسؤولي هذه الوزارة تملؤها الخشية والخوف... وفي الحقيقة حتى المسؤولون في الأجهزة الحكومية الأخرى يحاولون تفادي أي اصطدام أو اختلاف معنا.. تستمد هذه الوزارة أهميتها وقوتها من كونها الجهاز المسؤول عن الحفاظ على أمن الوطن... ولتحقيق هذه الغاية فإن ما نحصل عليه دون سقف.. والصلاحيات التي نملكها دون حد... وأيضا فإن تجاوزاتنا تحت بند المصلحة الوطنية أيضا ليس لها نهاية... وبالتالي فإنه عندما تتداخل المصلحة الشخصية مع المصلحة الوطنية فلا بأس... عندما ينجح ابنك أو ابنتك بمعدل مقبول ويرغب في دخول أهم جامعات البلد أو الحصول على بعثة خارجية.. فإن مكالمة واحدة كفيلة بأن تنهي إجراءات قبوله الطويلة المملة التي يعانيها أقرانه الخريجون بتقديرات امتياز.. والذين قد لا يقبلون.. أو عندما يكون ابنك أو أخوك مستثمرا ولديه شركة مقاولات لا بأس بأن تتم ترسية عدد من المشاريع المهمة على شركته حتى وإن كانت غير مهيأة.. لأنه ببساطة سيقوم ببيع اعتمادات هذه المشاريع بالملايين إلى شركة

أخرى... هذه مخالفات لكنها مخالفات صغيرة وبسيطة أمام المهمة التي أضطلع بها أنا وحثالة أخرى من المرتشين والفاسدين.. مهمة عنوانها حب الوطن والمحافظة على إنجازاته ومكتسباته. أن تكون موظفا هنا فهذا يعني أن تكون الله تمنح العلاج لَمن يحتاج إليه ويستجديه... أن تسجن مَن تريد... وتفقر مَن تريد.. وتشرد مَن تريد.. وتغني مَن تريد بمنحه أراضي أو مبالغ مالية كبيرة تحت بند تحسين الأوضاع... إنك الرزاق عندما تجلب إنسانا مسكينا من الصحراء وتمنحه أبهة الحضارة وتدمغه بدمغة العصبية فينظر لنفسه أنه من عرق سام.. والآخرون أدنى منه وأقل شأنا. أن تكون في هذه الوزارة موظفا عند البوابة، فهذا يعني أنك تقوم بمهمة سامية في صون المجتمع ومراقبته لأننا لا نثق بشعبنا.. فكيف بالله عليكم الحال وأنا واحد من رموزها وأهم موظفيها؟! هذه الأهمية تكمن في أن جميع القضايا التي تحال إليُ على درجة عالية من الأهمية والخصوصية.. صحيح أنها ليست على أهمية قصوى في مسألة الأمن الوطني... إنما لها أهمية وحسب. من خلال منصبي الوظيفي المرموق كان كل يوم يتم رصد آراء ومقالات وكتب يتم تأليفها خارج وطننا حول حقوق المرأة، وحرية المرأة، وتتم محاولات لإدخالها إلينا، وكنا نخاف جدا من مثل هذه الكتب، ونعدها غزوا لعقر دارنا، ومحاولة تقويض عاداتنا وتقاليدنا ومثلنا الإسلامية التي نصفها دوما بالخالدة.. وكان منعنا مثل هذه الكتب وعدم السماح بدخول صفحة واحدة منها واجبا إسلاميا قبل أن يكون واجبا وظيفيا. وكنا نطور من أنظمتنا وأفكارنا لمحاربة أي محاولة للالتفاف أو التمويه، تماما كما تدخل أجهزة مكافحة المخدرات في حروب مع تجار الهيروين ومهربيه، لكن الصاعقة التي ضربتنا في

الصميم، هي أن المجتمع وبالذات الشباب تجاوزنا، وأصبح يحصل على مراده من مثل هذه الكتب وبسهولة كبيرة.

* * *

المرتد عن الإسلام

الشمس شديدة الحرارة.. والصحراء لا تكف عن هبوب رياحها المحملة بالأتربة.. والعطش يشل تفكيري تماما... و لم يبق إلا الاستعداد للموت.. في هذه اللحظات لا أعلم هل ألتمس لنفسي العذر على ما فعلته في حياتي الماضية؟ وحتى لو فعلت ما الفائدة التي أرجوها؟ لدي يقين عظيم أن الرب لن يتسامح معي.. وسيهوي بي نحو نار جهنم التي أعدت لمن هم مثلي وعلى شاكلتي. عقلي يمر بشريط وجودي المتردي، أحد شباب وطني واسمه ياسر، عندما وقعت بين يدي عدد من الصفحات التي كتبها مدعيا أن الإسلام ينظر للمرأة بدونية ويحتقرها.. كنت أزفر غيظا وغضبا، و لم أتورع أبدا من لكمه وضربه ضربا مبرحا.. ثم ينهض ضاحكا ويقول: ماذا استفدت؟ إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله، فأضحك بصوت مرتفع وأقول: أنت لا تعرف الله... انظر إلى كتاباتك.. الآن تذكرت الله.. انظر ماذا كتبت؟ ألست الذي كتب: إن ثقافتي الدينية قليلة أو تنحصر فقط في الصلاة والصوم، ولكنني أقرأ في كتب تنتقد الإسلام، وتعتبره نظر إلى المرأة نظرة دونية ويتم الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وعندما أقرأ قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ وعندما أقرأ أيضا

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾ فالله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات القرآنية، يعيب على المشركين قولهم إن الله اتخذ ملائكة إناثا، وقولهم إن لله البنات، وأيضا لله الأنثى ولهم الذكر وإن هذه قسمة ظالمة... فما مشكلة الأنثى إذن وهذا التبرؤ منها بهذا الشكل من الخالق الذي خلقها وركبها وفق مشيئته وإرادته - سبحانه وتعالى-؟ وكيف يفضل الذكر على الأنثى كلاهما من خلقه هو وحده - سبحانه وتعالى -؟ فهذا... قد ورد في القرآن الكريم وهو كلام الله سبحانه وتعالى... أيضا عدد من الآيات التي توضح أن الله لا يحب المرأة، بل إنه - سبحانه - يتعالى ويترفع أن تكون له الإناث وللآخرين الذكور، والآيات السابقة فيها إشارة إلى هذا. وفي سورة الصافات أيضا يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ويقول الله أيضا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

فما المشكلة إذا كانت الملائكة إناثا؟! مثل هذه الآراء تجعلني أشعر أن ديني يتجاهل المرأة وكأن ليس لها قيمة.

ألست أنت من كتب هذا الكلام؟! هل تعلم أن هذه الكتابات ستخرجك من الإسلام؟ وهو ما يعني ببساطة أنك مرتد، وعقوبة المرتد القتل.. فيرد عليّ قائلا: هل تتوقع أن هذا الكلام من اختراعي؟ هل تعتقد أنني أنا من فكر في مثل هذه الكلمات؟ حاول أن تفهمني.. العالم بأسره يتساءل حول هذه الآيات.. بالنسبة لي قد أملك تفسيري الخاص لهذه الآيات وغيرها.. لكن المشكلة تشبثكم الأعمى بتفاسير مضت عليها قرون طويلة، وتمسككم المميت بآراء

تجاوزها الزمن. هذه التفاسير والآراء هي التي عززت النظرة الدونية للمرأة، هي التي نظرت إلى النص القرآني المقدس حرفيا، وفسرته وفق نظرها وظروف ذلك الزمن.. لذلك كل من يقرأ هذه الآيات يحتاج إلى تفسير وتوضيح، خاصة النساء.. فالسؤال: الآن هل الله – عز وجل – ينظر إلى لمرأة بهذه الوضعية؟ بالنسبة لي أقول: لا.. لا... إن نظرة الله –عز وجل– لجميع خلقه نظرة متساوية ولا يوجد فيها تفضيل.. لكن وفق النظرة الإسلامية القديمة الوضع مختلف تماما، وهذه النظرة هي التي أنت متشبث بها ولا تحاول حتى التفكير في تغييرها. سأضرب لك مثالا حتى تكون فكرتي واضحة لديك.. في مسألة تفضيل الرجل على المرأة، الذي يحدث هو أن لدينا تفضيل مطلق للرجل على المرأة، رغم أن القرآن أطرها حيث يقول الله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فهنا الرجال أفضل من النساء.. وقد تكون النساء أفضل من الرجال،.. فأحيانا يكون الرجل أفضل وأحيانا تكون المرأة أفضل، بما فضل الله بعضهم على بعض، ثم إن الله تعالى وفي الآية نفسها وضح بمثال متى تكون الأفضلية.. بما أنفقوا من أموالهم... لذلك إذا وجدت امرأة تنفق على الرجل وتصرف عليه وتعطيه من مالها وهذا موجود في جميع أرجاء العالم، فلماذا لا تكون لها الأفضلية، وحق الوصاية والقوامة؟! العلماء الذين فسروا هذه الآية لا يعطون المرأة أي أفضلية أو أحقية من شأنها تسبق الرجل. ببساطة إن المشكلة هي في تفسير النص، هذا التفسير الذكوري الذي تم في عصور ساد فيها ظلم المرأة وتسلط الرجل، واعتبار المرأة سلعة تباع وتشترى، ولا يوجد لها أي قيمة أو أدنى اعتبار. في تلك العصور تم تفسير النصوص المقدسة من أجل تبرير الظلم والجور بحق المرأة،

وأيضا لمزيد من الوصاية القاتلة عليها. في تلك العصور كانت الإماء والجواري تباع وتشترى وكانت تجارة الرقيق تشكل نظاما اقتصاديا هائلا في بناء الدولة، فكيف بالله عليك تأتي في مثل هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والقسوة تفاسير وآراء تمنح المرأة أدنى حق، وهي لا ينظر إليها إلا ككائن سخر وخلق لمتعة الرجل؟! هناك قضية أخطر وغير مبررة أبدا، وعلى حد علمي لا يوجد فيها نص وإنما اجتهاد علماء العصور السحيقة.. وهي منع المرأة من الشهادة في أي قضية جنائية مثل القتل، وبالمثل ودون أي مبرر يحرم على المرأة أن تكون قاضية مهما كان عملها ودرجتها العلمية التي تحملها. وفي السياق نفسه هناك قضايا ميراث المرأة والتي لها نصف ما لشقيقها.. حتى في العقوبات ليس هناك أي عدالة فالمرأة التي ترتكب خطأ تعاقب – سواء على مستوى العرف أو شريعتنا الإسلامية – بغير ما يعاقب به الرجل.

قاطعته قائلا: كلماتك تظهر تأييدا لمثل هذه الآراء، بل فرحا وانتشاءً بها، وهذا دليل على ارتدادك عن دينك؟

فيرد قائلا: لماذا تريد جعل الموضوع شخصيا؟ حاول أن تفهمني، أنا مسلم.. سواء آمنت بالله أو لم أؤمن هو ليس في حاجتي.. وإنما أنا الذي أحتاج إليه.. والإسلام دين قائم منذ آلاف السنين، ليس في حاجة لدفاعك، ولن يتضرر من ارتدادي، فحاول أن تفهم الموضوع، الذي أقوله، وبشكل واضح توجد ملاحظات وتوجد وقفات أمام عدد من النصوص تحتاج إلى جهد في التفسير بما يتلاءم مع حقوق الإنسان، وبما يتلاءم مع الجو العالمي الحديث. في هذا العصر أصبحت المعلومة سريعة التنقل، وأصبحت الثقافات شديدة التقارب والتنافر، وكأنها في مد وجزر، وهذا التقارب

والتباعد يسبب صراعات ويحدث فوضى فكرية هنا وهناك.. وينتج عنه سقوط أناس هنا وانحياز أناس هناك وتحول آخرين وانتقال ثلة... هذا الحراك الحضاري، يجب أن نتصدى له بوجهات نظر جديدة.. خاصة أننا ما نفتأ أن نكرر أن القرآن الكريم لكل عصر ولكل زمان.

اليوم أعترف أن همي الوحيد في ذلك التحقيق كان إيقاعه وتجميع التهم ضده، حتى أقضي عليه، لذلك بادرته بسؤالي: إذن ما تقول في قوله تعالى ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾؟ فرد عليَّ بيأس قائلا: كما قرأت أنت قبل قليل من النص الذي كتبته... أنا لست متخصصا في دراسة الإسلام دراسة تخصصية بحتة، إنما أنا مجرد مسلم، منذ نعومة أظفاره يتعلم قال الله وقال رسوله، في جميع سنواته الدراسية المتتالية منذ الابتدائية وحتى الجامعية منها، لذلك من غير المعروف لديُ أسباب السماح للرجل بالاعتداء على المرأة بالضرب، وإعطاء الرجل الضوء الأخضر ليضرب زوجته وهذا لماذا؟، بسبب أنها لا تريد ممارسة الجنس مع زوجها في تلك اللحظة، فليس لها حرية الرفض، بل يجب أن تطيع طاعة عمياء أو تضرب... حتى وإن قيل يجب أن يكون الضرب غير مبرح، ولكن مبرح أو غير مبرح هو ضرب وفيه إراقة للكرامة الإنسانية، لكن هل تعلم أن هؤلاء العلماء الذين أعيتهم الفكرة في تفسير منطقي لآية الضرب، واصلوا التجديف ضد المرأة لدرجة أن قالوا إن الرجل الذي يفطر نهار رمضان بعذر شرعي، فإن على زوجته أيضا أن تفطر معه حتى دون عذر شرعي، لكن لماذا؟ لأن زوجها (الرجل) الذي أفطر بعذر شرعي قد يرغب في ممارسة الجنس معها في نهار رمضان، وإذا رفضت المرأة أن تستجيب لهذا القول الذي هو في منـــزلة الحكم

الشرعي، هنا تأتي وظيفة الضرب، وتأتي أهمية آية الضرب لتؤدب المرأة على عصياها. من هذا يتضح أن الرجل تدخل حتى في عبادة المرأة لله – عز وجل– وتدخل بالتالي فيما بينها وبين خالقها، الذي هو الصوم.. ألم يقل الرسول – صلى الله عليه وسلم– في الحديث القدسي، إن الله قد قال! (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به).

هززت رأسي منتشيا بهذه الإجابة وقلت له: ما دمت لست متخصصا في الدراسات الإسلامية، و لم تدرس دراسة تخصصية عن الإسلام، فما الذي سمح لك بنقده أو تبني آراء أعداء الإسلام في نقده؟ أنت وأمثالك مجرد ببغاوات ترددون دون أن تعوا خطورة ما تقولونه.. فأنت وأمثالك لا يمكن أن تتحدثوا عن القضايا العلمية من الهندسة أو العلوم والكيمياء والرياضيات.. وغيرها، لكن عند الحديث عن الإسلام لا تتورعون عن الخوض فيه دون خوف أو خشية!

فأجابني: وأنت من الذي نصبك مدافعا عن الله؟ هل أنت متخصص في الدين الإسلامي حتى تدافع عن الإسلام؟... حتى أثبت لك هشاشة فكرتك، تشبه الدين بأي من العلوم الإنسانية الأخرى، هو بالنسبة لك مجرد علم ضمن العلوم الأخرى. بالنسبة لي الإسلام هو جزء من حياتي، منذ ميلادي، وأعتقد حتى مماتي ملازم لي، فهل تريدني ألا أفكر، أو أتساءل.. ثم إن نقدي ليس موجها ضد ديني، كما قلت لك سابقا، بقدر ماهو موجه لآراء علماء وأقوال وممارسات.

كنت أضحك لأنه بدا متوترا وهو يرد علي، وقد قلت له: محاولتك وتبريرك هذان لن يجديا نفعا، كيف تحاول أن تفصل النص

القرآني عن تفسيره؟ وهذا التفسير الذي تتحدث عنه يتم وفق تسلسل معروف وهو تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسير القرآن بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم تفسير القرآن بأقوال الصحابة، ثم بالاجتهاد... أنت تهاجم العلماء وهم جزء من الشريعة الإسلامية، إذن تهاجم الإسلام!

فقاطعني بصوت مرتجف قائلا: سأثبت لك أن العلماء في الإسلام فاتهم شيء كبير، لذلك يجب أن يستمر النقاش والبحث والاجتهاد، هل تعلم أن الإسلام لا يعترف بجريمة الاغتصاب، ولا يوجد للاغتصاب تعريف محدد، فإذا ادعت المرأة أن رجلاً اغتصبها، فعليها أن تثبت هذا بأن تجلب أربعة ذكور (رجال) يشهدون أنها تعرضت للاغتصاب.. وإذا جلبت نسوة يشهدن معها ترفض شهادتهن.. هل تعلم لماذا؟ لأن هذه الجريمة لو تمكنت المرأة من إثباتها فإن العقوبة على الرجل قد تصل إلى القتل. وفي مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة قصص تدور حول قضايا اغتصاب تعرضت لها فتيات في مقتبل العمر وهرب الجناة دون عقاب... ففي بلد مثل باكستان وهي تدعي وتفخر بتطبيق الشريعة الإسلامية اعتدى رجل على فتاة عمرها ثلاثة عشر عاما، وعندما قام والدها بالشكوى لرجال الأمن، لم يفعلوا له شيئا يذكر، ولم يتمكنوا من أن يقدموا الرجل حتى للمحاكمة، هل تعلم لماذا؟ لان قانون باكستان الإسلامي يشترط إحضار أربعة شهود من الرجال.

توجد جمعية في باكستان ذكرت هذه القصة وأوضحت أيضا أن أي امرأة مسلمة تدعي أن رجلاً اغتصبها قد تنتهي مدانة بجريمة الزنا، لأنها لا تستطيع أن تحضر الشهود المطلوبين. وهناك أيضا قصة سيدة نيجيرية اسمها صفياتو – نشرت عنها معظم الصحف العربية

والعالمية – ادعت أن رجلا يسكن بالقرب منها قد اغتصبها، وقد حملت بسبب هذه الجريمة، فحكم عليها بالرجم.. لماذا؟ لأنها لم ولن تتمكن من إثبات ادعائها بأنها تعرضت للاغتصاب. أين دور العلماء في وضع اجتهادات وآراء يمكن أن تساعد على إنصاف المرأة في مثل هذه الحالات؟ لكن لماذا يتكبدون عناء التفكير من أجل المرأة والتي ينظرون إليها وكأن ليس لها قيمة أو اعتبار؟

نهضت وجعلت أجمع أوراقي وكنت أقول له: الشيء الغريب هو حماسك في الدفاع عن المرأة، ثم وقفت ونظرت إليه وقلت.. هل هذا يعني أنك تعارض تعدد الزوجات.. صحيح.. ما رأيك في تعدد الزوجات؟ ثم جلست وأنا أنظر إليه وأنتظر إجابته.

فقال: بالنسبة لي ومن خلال القرآن الكريم، الموضوع واضح فالله سمح بالتعدد لكنه جعل له قيودا واشتراطات، وهذا من خلال الآية القرآنية نفسها.. أول شرط العدل، والنص القرآني قال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ إذن.. فالتعدد في أبسط صوره في الإسلام مكروه وله شروط.. وغير متاح لمن أراد، فالعدل هو الأساس في هذه المسألة وأول العدل أن تأخذ موافقة زوجتك الأولى على زواجك بأخرى، وألا تخفي على زوجتك الثانية أنك متزوج.. بمعنى من بدهيات العدل ألا تمضي عمرك مع سيدة ثم تقذف بها وتأتي بامرأة أخرى أصغر سنا.. من بدهيات العدل أن توافق زوجتك الأولى على هذا الزواج. ثم يا أخي ألم يمنع الرسول الكريم علي بن أبي طالب من أن يتزوج على فاطمة ابنته، وقال له: فاطمة بضعة مني، يُريبني ما يُريبها ويُؤذيني ما أذاها؟ فامتنع علي بن أبي طالب من الزواج بأخرى حتى وفاتها.. ففي هذا الحديث دليل واضح على أن الزوجة الثانية فيها

أذى للزوجة الأولى، وأيضا فيه دليل على أنه يمكن المنع ووضع شروط على تعدد الزوجات... ما الذي يحدث لدينا الآن لقد أصبحت المرأة سلعة توضع لها عروض متعددة للزواج منها: زواج المتعة وزواج المسيار وغيرهما كثير؟! تبارى العلماء وتسابقوا في الإباحة والتحليل لها.. والمشكلة دون أي تقدير لهذه المرأة ودون أي حقوق إضافية لها.. لكن السؤال: لماذا لم يلتفت العلماء لهذه النقطة، وجعلوا تعدد الزوجات مفتوحا بل شجعوه؟ السبب هو نظرتهم لهذه المرأة، وأنها خلقت فقط لإمتاع الرجل لا أكثر ولا أقل... ثم صمت. وفي تلك اللحظات، لم أجد أي كلمة.. كنت مذهولا، من أين يأتي بهذه الأفكار الشيطانية؟ ومن يغذيه بمثل هذه الثقافة الخطيرة جدا؟ الغريب أنه يعلم أن هذه الآراء التي كتبها ستقوده في آخر المطاف إلى أن يقتل ولكنه كان متشبثا بها. اليوم أتذكر كلمة قالها في إحدى جلسات التحقيق، قال: قد تكون آرائي متطرفة ضد الإسلام، لكنها مجرد آراء وكلمات.. تسامحوا معي.. تماما كما أنتم اليوم تتسامحون مع المتطرفين والإرهابيين الإسلاميين الذين يسفكون الدماء البريئة.. تسامحوا معي.. أرجوكم.. في تلك اللحظات كان العرق يتصبب منه وكان مرهقا جدا... أو إذا صح التعبير مريضا جدا.. فبسبب ما كتبه، جلب لنفسه كل الويلات والعذاب. جعلت أنظر إليه بعمق.. بينما كان يوجه نظره نحو سقف الغرفة.. ويتمعن في من حوله... وأنفه قد تيبست عليه قطرات من دمه.. وصدغه متورم، وعيناه تحولتا إلى الاحمرار والازرقاق... قلت له: إنك حالة مرضية مجنونة.. إن الله أراد لك الهوان.. والذل.. فأحبط عملك.. وسلمك للشيطان.. ومصيرك إلى النار... ثم هممت بالخروج فرد قائلا: تتكلم على

لسان الله... وتقلده في مشيئته.. وفي الغد أخشى أن تعتقد أنك هو، إلا إذا أنـــزل الله عليك عذابه.

وهذا هو الرب قد أنـــزل عليٌّ عذابه وسحقني سحقا.. وجعل نفوذي أوهاما.. وثرائي سرابا.. وقوتي أحلاما... مرغ رأسي في التراب.. وهد جسدي باللهيب... فأي عبرة أنا اليوم.. وأي دعوة ارتفعت إلى أعلى فشقت عنان السماوات.. واستقرت بين يدي الجبار.

* * *

مناضلة من الطريق الصعب

لا أعلم إذا كان الصداع علامة على دنو الموت، لكنني فعلا أعاني شدة العطش والحاجة إلى قطرة من الماء، ووسط هذه الآلام تتكاثر الصور في ذهني وكلما غطتني الإغماءة أعود أستيقظ وأنا أكثر تعبا وأنفاسي تلهث وصدري يرتفع وينخفض، أصرخ وأبكي خوفا من الموت فيضيع صوتي وسط هذا المكان الشاسع. ومن وسط صرخاتي التي تضيع في أتون هذه الصحراء أتذكر صرخات زوجتي مريم، لتنبع ملامحها من بين تشققات ذاكرتي الملتهبة باسترجاع الماضي.. تلك السيدة التي اقترنت بها في مطلع حياتي أشاهدها الآن وأنا مستيقظ، إنني لست نائما أو مغمى عليَّ، أرفع يدي نحو وجهها فلا أصل إليها إنني أتخيلها.. إنها كالسراب.. تماما أشاهد الماء ولا أصل إليه، أين هي يا ترى الآن؟ هل تزوجت برجل آخر أم تراها قد توفيت؟ مريم كانت من أسرة فقيرة، فوجئت بأبيها يعرضها للزواج عليَّ، أتذكر تعليقاتي عليه وتهكمي، وقولي إذا لم تكن جميلة سأقذف بها إلى الشارع فقال: إننا نشتري رجلا.. فأرد بغضب إنني أنا من يقوم بالشراء والبيع أيها الأحمق، أتذكر أنه غاب لفترة عن حضور مجلسي، وبعد أن طلبت حضوره وجلس بين يدي، قلت له: لقد وافقت على الزواج بابنتك فمتى تريد أن تحضرها؟ لا أعلم لماذا الآن تحديدا تتضح في ذهني المتعب صورة ذهوله، وهو يقول بتردد بالغ: لعلي استعجلت في عرض الموضوع عليك، هناك الكثير ممن يتطلعون

إلى مصاهرتك. ضحكت ونهضت وأقسمت له أنه إذا لم يأت مطلع الأسبوع المقبل وابنته في بيتي وعلى سنة الله ورسوله أو على سنة الشيطان، أن أجعله عبرة لمن لا يعتبر. في الحقيقة لم يمض إلا يوم وكانت مريم في منـــزلي، وقد عقدت قرانها بواسطة كاتب عقود الزواج الذي يحضر دوما في مجلسي.. ولا يمل الحديث عن النساء وأنواعهن وتقسيماتهن وطرق التعامل مع كل قسم، بل حتى أساليب المضاجعة وأنواعها، وكل هذا وفق الدين ومن التراث الإسلامي الخالد! وفي هذا اليوم الملتهب أجد علامات وجهها وبياضها الناصع واضحة في ذاكرتي.. في هذا الوقت العصيب الذي يمر بي.. أشاهدها ماثلة أمامي كرونق جميل مضمخ بالماء والبرودة.. لعلها تريد أن تزيد عذابي وخوفي من الموت.

فأنا لم أرحمها، فقد قسوت عليها، واعتبرتها جارية جلبت لمتعتي فقط، ورغم ما كانت تتمتع به من كبرياء وأنفة، كنت أشد حرصا على تحطيمها وإهانة كرامتها وإلغاء إنسانيتها، وعندما لم أتمكن من الوصول إلا إلى جسدها اعتقدت أنني لفظتها، واليوم أدركت أنها هي التي لفظتني من وجودها وحياتها ومضت بسلام من بعدي. تمر بذاكرتي تلك الواقعة التي ضربتها فيها، فخشيت أن تقتلني وأنا نائم، فضحكت وقالت لي: اطمئن لن ألطخ يدي بدمك القذر. قلت لها: ما دمنا قد وصلنا لهذا الحال فأنت طالق، نظرت إلي مليا وابتسمت وقالت: لا بأس.. هل تعلم أنه رغم كل سنوات عمري التي تعلمت خلالها أن أقسى وأعنف ما قد تتعرض له المرأة هو سماعها كلمة طالق، فهي أشبه بالموت لها... لكن العجيب أنك مع لفظك هذه الكلمة أدخلت السعادة إلى قلبي وشعرت بتحرري وانطلاقي وإنسانيتي.

تماما عكس مريم، تتراءى لي صور خليلتي الحبيبة والأثيرة إلى قلبي لوعة، التي كنت أحب أن أجلس وأسامرها كلما شعرت بالغضب والضيق. لم يكن يميزها الجمال، إنما مرحها وخفة دمها وأيضا جرأتها وقصصها مع الشبان الذين يعاكسونها، والمواقف التي تتعرض لها. كنت أضحك من أعماق قلبي عليها، من تلك القصص التي حكتها لي، ما حدث لها أثناء عودتها إلى قصري بعد تبضعها من السوق، تقول: عند إحدى إشارات المرور توقفت سيارتي الفارهة التي تلفت الأنظار!.. وإلى جانبي توقفت سيارة نقل كبيرة.. تحمل أكداسا من العمال المتعبين.. بعد يوم حافل بالمشقة والأنين.

نظرت إليهم فشاهدت البؤس في أبلغ صوره.. يغطي سحنات تلك الأوجه المتسخة.. وشاهدت المعاناة الإنسانية في أكمل صورها القاتمة.. فتعاطفت معهم.. ولعنت جور الحياة عليهم.

فكشفت الغطاء عن وجهي، وجعلت أنظر إليهم.. وكأن لسان حالي يقول: هيا يا جمع التعساء والفقراء.. هيا يا جموع الطبقة الكادحة انظروا إلى وجهي الفتان وجمالي الأخاذ.. هيا وجهوا نظراتكم العطشى القاسية العنيفة نحو وجهي العذب البراق.. ولتلتفت أوجهكم الكالحة التي اتخذت حبات العرق منها طرقا ودروبا وسوّدتها الشمس اللاهبة.. هيا انظروا وأطفئوا بنظراتكم لوعة الأمل وحرمان الأوقات.. هيا تمتعوا ولو للحظات بوجهي الذي يفيض رونقا وجمالا.. هيا انتهزوا فرصة عمركم.. فلن تظل إشارة المرور حمراء العمر كله.. إنها سرعان ما تضيء لونها الأخضر وعندها ستكرهون الألوان الخضراء بقية حياتكم المتسخة.. لكنني فوجئت بواحد من أفراد الطبقة الكادحة المتكدسة في سيارة الشحن يقترب مني ويبصق على وجهي.. ولولا أن زجاج سيارتي كان موصدا

لغطته النفايات النووية.. وعندها أقسم بالله سأجعلك تحكم على هذا المتطرف البائس بالقتل.

لا أخفيك أنه قد أحسن سائقي صنعا عندما انطلق بالسيارة وغادر سريعا، لكنني كنت مندهشة من إنكار الجميل الذي وجدته ومستغربة من الجحود الذي صادفته.

وتضيف وهي تضحك وتتمايل حسنا، لتوي اكتشفت أن هؤلاء إنما هم طبقة حقيرة.. لا يحتاجون حتى إلى نعمة البصر، أمانيهم متواضعة جدا كرغبة في قليل من طعام، ولا أكثر... ما أبسط أمانيهم! وما أعظم ما منحتهم!

العجيب أنني كنت فخورا وسعيدا بلوعة مع عبثها ومجونها، وشقيا غاضبا مع مريم مع طهرها ونقائها. إنني الآن أدركت السبب فالصحراء تكشفه لي، ذلك أن روحي كانت قذرة وغير طاهرة لذلك لا تحب إلا ما يتماشى مع سوادها وقتامتها.

أذكر أن مريم كانت تحمل في وجدانها قضية ولعلها تخيلت أنها بزواجها مني تستطيع أن تصل بصوتها وبالتالي صوت النساء في الوطن إلى تحقيق بعض مطالبهن في الإصلاح وتحسين وضعهن في المجتمع، فمرة طلبت أن أساعد في إيصال صوت ورأي المرأة إلى مجلس الوزراء ومجلس الشعب، ضحكت وضحكت.

اليوم فقط تظهر لي علامات الذهول التي رسمت على وجهها فمن غير المعقول أن رجل الدولة الذي يضاجعها لا يفقه إلا فنون الجنس، وأفخر أنواع الويسكي، إضافة إلى ذلك لسان قذر وقلب أسود. ابتسمت لي وقالت: سيدي لو تعلم الجور والظلم اللذين تعانيهما الكثيرات بسبب عدم وجود نظام مكتوب ومحدد يضع ضوابط وأسسا للعلاقات الزوجية والاجتماعية بصفة عامة؟ التفت

إليها وقلت: ما رأيك أن تخرسي؟!، فانا في منـــزلي وأريد أن يرتاح رأسي من هذه الأسطوانة وهذه الأحاديث المملة. في ذلك الوقت كانت الصحف والفضائيات والمجالس الخاصة ليس لها حديث سوى عن قيادة المرأه السيارة. أذكر الآن أنها في يوم مدت إلي قصاصة من ورقة فيها نص يبدو أنه كان منشورا في إحدى المجلات، كانت تلك القصاصة تحمل قصة امرأة تحدث نفسها فتقول: ما زالت أفكار البارحة تراودني في تخيل حضن رجل، أطفئ به لهيب جوارحي وأحاسيسي.. وهذه هي الساعة اللعينة تقترب من السابعة صباحا و لم أذق طعم النوم وعليّ الآن أن أستعد للذهاب إلى عملي... كنت خلالها أقف أمام المرآة الطويلة في غرفتي، عندها جعلت أحدث نفسي: يا للهول كم وجهي برّاق خلاب.. كم اجتهدت أسرتي في تغطيته وإخفائه عن الجميع.. ويا لجمال قوامي، وحسن مفاتني.. كل هذا سيغدو هياكل.. وستغيره الأيام.. وتبدله السنوات.. ستتلاشى إشراقتي.. وتنطفئ بسمتي!

عندما كنت في طريقي للخروج من المنـــزل.. كنت أترنح كمن أثقل في معاقرة الكأس.. وأنا ما عاقرت في ذاك المساء سوى أفكار الحب والهيام وقصص العشق وتخيل أديم الشفاه.

عندما وصلت للسيارة وجدت هذا السائق يبتسم في بلاهة نحوي يقول: ماما.." أنت فيه تأخير كثير"... ألقيت بنفسي على المرتبة الخلفية.. نظرت بجانبي كان فراغا تاما. كنت أتخيل أن في ذلك الحيز المكاني رجلا جالسا بجانبي ينظر إلي.. وقد خرجت عيناه من مقلتيه ذهولا من جمالي.. قطع أفكاري هذا السائق الوغد وهو يقول: "ماما أنت فيه تعبان اليوم.. أنت مريض"... رفعت رأسي نحوه كان ينظر من خلال المرآة التي أمامه نحوي بعيون

كعيون الصقر متوثبة متحفزة شديدة الأمل.. وقد جعل هذه المرآة باتجاهي تماما.

جعلت أفكر وأقول: ماذا لو كان هذا الأبله أجمل.. أكثر ثقافة.. ذا شخصية متوازنة؟! أسندت رأسي وقلت في نفسي: يا راجا إن الحب وحده لا يكفي.. أعرف أن هذا الأحمق يعشقني هذا شيء طبيعي.. لكن هذا لا يثير أي غريزة طبيعية مني تجاهه.

وأنا أنظر من نافذة السيارة وهي تسير في طريقها المعتاد.. كأني أشاهد فيلما عرض أمامي مليون مرة.. تخيلت المركبات نفسها.. حتى العابرون على الأرصفة هم أنفسهم.. حتى البائعون في المحال التجارية وعند الإشارات هم أنفسهم.. هذا فرح.. وذاك غاضب.. وآخر لا يحمل وجهه أي معنى لتعبير إنساني. عندما توقفنا عند الإشارة الضوئية.. توقفت سيارة بداخلها شاب جعل ينظر إلي.. وجهت عيني باتجاهه.. كشف عن ابتسامة.. ثم تحول فجأة إلى الضحك. كنت أفكر في هذا الشاب وسر تحول ابتسامته الرصينة إلى ضحكة فوضوية.. لقد بدأت تصرفاته تنم عن شاب غبي غير مسؤول مندفع لكن لا بأس به.. أنا مع مصطلح "الأقربون أولى بالمعروف".. والحب!

اتضحت معالم شخصيته أكثر عندما بدأ في رفع صوت المسجل.. تبا له، حتى ذوقه في اختيار الأغاني سخيف. لوهلة كنت أريد أن أنــــزل من السيارة وأتوجه نحوه، وأقول: أحد يسمع نهيق حمار ويتراقص معه!!".. لكن ماذا لو فعلت هذا؟.. بالتأكيد أنه سيمسك بيدي ويقبلها.. ولا أستبعد أن يبكي.. لعل هذه واحدة من مشكلات شبابنا، اعتقادهم الغبي أن خفتهم ستميزهم وتجذب إليهم الأنظار.. ولا أعلم لماذا لم يفكروا في التميز في الأمور الحياتية الإنسانية من العلوم والمعرفة وتنمية ثقافتهم؟

قادتني أفكاري للتساؤل مرة أخرى.. لماذا يجلس راجا إلى جانبي في سيارة لا يبعد عني أكثر من متر.. بينما كان من الأفضل أن أقود سيارتي بنفسي.. لعله من حسن حظي أو سوئه.. لا أعلم؟.. كون راجا بهذه الوضعية الشكلية المقززة.. لكن ماذا لو كان سائقي رائعا؟!... أحيانا شبقي يجعلني أطرح أسئلة غير مفهومة حول معني صيانتي والمحافظة عليّ.. وكأني مثل سيارتي أحتاج إلى الصيانة والمحافظة في الاستخدام!!.. أشعر أنه تتم معاملتي وكأنني كائن دون عقل وإحساس وشعور.. أحيانا تزداد أسئلتي عن: متى ستنتهي أسطوانة العادات والتقاليد التي نسمعها منذ أن وعيت على هذه الأرض؟

الحقيقة إنني أشعر أنهم يورطوننا في مزيد من الظلامية والانهزام بهذه الوصاية القاتلة على عقولنا وتفكيرنا.. هل كان واحد منكم يعرف أفكاري داخل عقلي.. لو أنني ما سطرتها لكم؟!... إن الفكرة دوما بسيطة وعفوية تتسرب إلى الذهن.. وتقف التربية والأخلاق والدين وسمو المبادئ سدودا وموانع حقيقية عن تشرذم الإنسان وانحطاطه وانقياده لشهواته وإغراءات الشيطان.. لكن هذا لا يمنع تفكيري في رغبتي الملحة في الارتماء على صدر... حتى وإن كان لعابر.. لكن إشباعي لهذه الغريزة بهذا الشكل الفوضوي سيحط من قدري كإنسانة وينـــزلني لمرتبة الحيوانات.. وقبلها سأكون مومسا. يا للهول.. إن التفكير وحده في هذه الدرجة الحقيرة ينشلني تماما من أفكار الشبق والإشباع والرغبة.. ويعيد لي توازني.

حسنا.. حسنا.. سأتصالح مع نفسي.. سأقول وأصرخ فيها عاليا: لا تهمني عاداتكم ولا تقاليدكم ولا عصبياتكم. أنا إنسانة حرة.

أتذكر الآن أنني ألقيت بتلك القصاصة الورقية من يدي وانطلقت إلى زوجتي مريم أوسعها ضربا وشتما وركلا، وأنا أصرخ: من هم الذين يورطونكن في مزيد من الظلامية؟ من هم؟ هل تريدين تغيير عاداتنا وتقاليدنا وقيمنا؟ ترد وهي موجوعة تتقاطر من فمها قطرات من الدم فتقول: هل ترغب أن يستمر مثل هذا الظلم دون حساب دون عقاب؟ هل تعتقد؟ فألكمها على صدغها فتعود إلى الأرض وأصرخ فيها، أنت تتحدثين عن الدين عن الإسلام.. والله لن يشتم أحد هذا الدين أبدا.. فتنهض صارخة لكن بضحكة مستهزئة: أنت آخر من يتحدث عن الدين وعن الإسلام إنك لا تكاد تفيق من سكرتك ولا تنقطع عن شهواتك وأنت من ملأ البلاد بالفساد والظلم وعدم الاحترام.. وأيضا لا تصلي إلا نفاقا ورياء أمام الجموع في المناسبات، فأي إسلام تتحدث عنه بالضبط؟ وأي دين هو هذا الذي تسلطونه على رقاب خلق الله كلما ضاق عليكم من الأمر ضائق؟ إنه دين صدقني لا يعرفه الشعب ولا يعلمه إلا أنتم. عدت ألكمها حتى فقدت الوعي واعتقدت أنني انتصرت عليها.

هذه اللحظات التي أعيشها الآن من عمري متبقية فقط لتلاوة الاعترافات.. ومريم ولوعة وغيرهما أخريات مجرد ضحايا في قائمة طويلة تلطخت يدي بصدقهن وبراءتهن.. نعم لوعة.. واسمها الحقيقي فاطمة.. وكنت أكره اسمها، ولعل كرهي هذا الاسم لنقائه وسموه وعلوه فقلت لها منذ اليوم أصبح اسمك لوعة.. أتذكر إنها ردت قائلة: توجد أسماء كثيرة أجمل.. فقلت لها: لوعة يعني لوعة.. وفاطمة أو لوعة كانت مجرد فتاة بريئة كان اتصالها الأول عليّ بهدف مساعدتها على إيجاد وظيفة ملائمة لها من أجل أن تصرف على أسرتها وإخوتها الصغار بعد وفاة والدها، لعلها تخفف الضغط والحمل على أمها التي

تعمل عند الناس في الغسل والطهي ونحوها من أعمال المنـــزل.. واتصالها تم بواسطة شخص يعمل لدي، وهو الذي نصحها أن تتصل. غني عن القول إني قد كافأته على جلب هذه الفتاة.. وبعد عدة مكالمات أبلغتها أن لديّ وظيفة مناسبة لها في قصري، أتذكر أنها توقفت عن الاتصال نحو أسبوع، لكنها عادت ووافقت على عرضي، منذ ذلك الحين، لم أغيّر اسمها وحسب، وإنما غيّرت تفكيرها وطريقة عيشها وأسلوب حياتها، غيّرت بساطتها.. غيّرت نقاءها.. غيّرت طهرها... كل هذا لأني لم أرحم فقرها.. ولم أتعاطف مع بؤسها.

* * *

يمتد يوم الصحراء القاسي دون منتهى.. وأشعر أن النهار سرمدي، والمساء برق سريع الاختفاء.. حيث تزداد حالة العذاب التي أعيشها مع بزوغ الشمس وكأن هذا الحال لن ينتهي إلا بتوقف أنفاسي وانطفاء شعلة الحياة من جسدي، وأنا أعتقد أن هذا مصيري إذا لم يكن الآن فهو بعد ساعة. سبحان الرب من كان يصدق أن الإنسان الذي أمضى أكثر من ثلاثين عاما وسط الصحراء.. الذي يعرف رياحها وهبوب أتربتها.. وتغير كثبانها الرملية، وقسوة مناخها.. سيكون ضحية، ولن يجديه نفعا كل ما تعلمه بالممارسة والخبرة.

فعلا أنا لا أسيطر على هذياني.. ولا على أفكاري.. فهي تسير حيثما أرادت دون قرار أو اختيار... الآن تبدأ في اجترار طفولتي، وتصعد بها إلى واقعي المتردي، وأنا مستسلم. حلقي متيبس تماما.. رموشي علقت بها حبات الرمل حتى لم أعد أقوى على فتحها كاملا، حواجبي تحولت إلى البياض.. ملابسي الوثيرة أصبحت عبئا عليّ فتخلصت منها حتى سيارتي لم أعد أستطيع ركوبها بسبب آلام متواصلة كلما حاولت التحرك. قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة اسمحوا لي أن أقول ما كنت أحاول منذ نعومة أظفاري إخفاءه.. اليوم لم تعد الأسرار تجدي.. وليس لكتمها أي حكمة.. لذلك سأبوح وأتكلم على الأقل تكون المبادرة لي وليس لعقلي.

* * *

كيف كرهت المرأة لهذه الدرجة؟

في لحظة زمنية تقل أو تطول، تقصر أو تمتد، كنت أعتقد عدم وجود كائن بشري أنثوي، وكان ظني الوحيد أن الحياة لا يعيش فيها سوى الجنس الذكري، ثم تطور فهمي، عندما بدأت أستوعب مشاهد عدد من النسوة وهن يجبن الشوارع متدثرات باللباس الأسود، لكن هذه المشاهد كانت خالية من أي تفكير عميق أو بحث عن الآخر والتعرف عليه.

وبعد فترة زمنية أخرى تطورت أكثر فأصبح الفضول يقودني لمعرفة من خلف هذا الرداء الأسود، لكنها محاولات قليلة كانت جميعها محاطة بالفشل بسبب خوفي وترددي.

عندما فتحت عينيَ لم أشاهد سوى أبي، وثلاثة إخوة، وعدد كبير من الرجال يجلسون في مجلس قصرنا، وقد كان من يعد طعامنا رجلا، ومن يلبسنا رجلا، ومن يغسل ملابسنا رجلا، ومن يحمينا رجلا ومن يسهر بجانبنا رجلا، فانعدمت المرأة منذ أن توفيت أمي وأنا في سن صغيرة جدا، لا أذكرها حتى.

في المدرسة كان معلمونا ذكورا، وزملائي وأقراني جميعهم من الذكور، وكنت أعود لألعب، فلا أجد إلا الذكور صغارا أو كبارا، ولا مجال لرؤية أنثى، وحتى لو رأيتها، فإنها ستظل في عيني ذكرا، لأنني حتى ذلك العمر لم أفرق بين الجنسين ووسط مجتمع يحرم عليك معرفة اسم أي امرأة.

بدأ كرهي لهذا الجنس الأنثوي، عندما فاجأني أبي بإحضار امرأة لمنـــزلنا، ووسط ذهولي واستغرابي ونظراتي لهذه السيدة، التي فسرتها بعدم قبولي بها، قال لي: إنها سترعاكم وستعد طعامكم، نظرت إليه باستغراب وقلت: مثلما يفعل حاتم "طباخنا" فأجاب: نعم... ولم يمض وقت طويل على وصول أول امرأة أتعايش معها، إلا وقد بدأت استخدام العنف معي، توسعني ضربا، وركلا، وقسوة غير مبررة، لم أكره هذا الجنس الأنثوي وحسب وإنما تخيلته كائنا يعيش على القسوة ويقتات منها، وتخيلته عنيفا دوما، قاسيا دوما. وكبرت محاطا بهالة من هذه الكراهية، ولكن، ودون أن أشعر، تحولت كراهيتي لزوجة أبي إلى جميع النساء، ولأني ترعرعت وسط مجتمع من الذكور، فقد كانت أولى علامات الرجولة هي أن أستمر في أي سياسة من شأنها أن تجعل المرأة مهمشة تماما، ولذلك سخرت جميع إمكاناتي المادية لمقاومة أي تحرك قد يمنح المرأة بصيص أمل في حياة متعادلة متساوية مع شقيقها الرجل.

لا تستغربوا هذا الحجم من الكراهية التي كانت مترسبة في وجداني عن المرأة فلطالما كانت آرائي، أنها شر لا بد من التعايش معه وهي كالمرض الذي لا أمل في الشفاء النهائي منه، لذلك فإن الحل الوحيد هو تجنبها حتى تسلم من أذاها وشرها.

إن هذه النظرة الدونية للمرأة كانت شاملة وأول من اكتوى بها زوجتي أم خالد.. والتي كنت أقول لها دائما: أنت وظيفتك الوحيدة أن تنجبي الذكور.. ورغم أن لديّ خالد وسعود ومشاري، إلا أنني كنت في غيظ لأنها أنجبت ابنتين هما شيخة وهيا، ورغم أنهما كانتا تحاولان طوال عمريهما التقرب مني كنت أشد حرصا على قذفهما بعيدا عني.

أبكي الآن براءتهما وعفويتهما وأحن لهما ولطيبتهما.. أبكي وأصرخ في هذه الصحراء بما تبقى في قلبي من نبض... أتعذب الآن فعلا، كم امرأة يجب أن تسامحني.. أن تعفو عني؟ كل نساء الشعب.. أسهمت بطريقة أو أخرى في تقليل فرصهن في الحصول على المزيد من حقوقهن.. وعرقلة أي جهد من شأنه فتح نافذة ضوء من الحرية للمرأة، ولطالما احتويت ودعمت اجتماعات وملتقيات من شأنها التنسيق والترتيب والتخطيط لإفشال أي صوت يدعو إلى حرية المرأة ومنحها مزيدا من حقوقها، حتى باتت هذه مهمتي الأزلية في الحياة.

اليوم أستغرب كيف كرهت المرأة لهذه الدرجة؟! وكيف كرهت زوجتي بهذا القدر؟! بل كيف كرهت حتى طفلتي؟! منذ ميلادها الأول، عندما جاءت الممرضة تبشرني بقدومها امتقع وجهي بالدم ومن ثم جلست على أقرب مقعد وكأنها تخبرني عن مصيبة حلت بي.

من هذا الغيب الطويل تنبعث صورة ابنتي هيا، قبل عدة أسابيع قليلة شاهدتها في فناء المنـــزل، وهي خلف مقود سيارة شقيقها خالد عندما رأتني قالت: إنني فقط أتخيل نفسي أقودها.. نظرت إليها بدونية وقلت لها: من الأفضل أن تتخيلي أمورا على مستواك.. ومضيت. قبل عدة أشهر كنت أتحدث مع أبنائي خالد وسعود ومشاري، وأقول لهم: إن المرأة مهما علا مكانها ومهما كان منصبها لا يمكن أن يعتمد عليها، والدليل على ذلك أن الإسلام يحرم سفرها إلا برفقة رجل صغر أو كبر، فهبت واقفة ابنتي شيخة قائلة: أبي إن الرسول يقول في حديث أكثر صحة وقوة إن الله سيظهر هذا الدين حتى إن المرأة تسافر وحدها من اليمن إلى الشام ولا تخاف على نفسها... فلم يقل وبصحبتها رجل صغر أو كبر.. قال وحدها...

فلماذا تأخذ ما يوافق هواك وهو الأضعف وتترك الحقيقة وهي الأقوى؟ فنهضت لأصفعها وأوبخ أمها على سوء تعليم ابنتها.

أذكر في ذلك الوقت تصاعد النقاش حول منع النساء من الصلاة في الساحات التي تحيط بالكعبة في المسجد الحرام في مكة، وجمعهن في ركن داخل المسجد، وتخصيص أوقات لطوافهن، أذكر أن ابنتي هيا جاءت إلى مسرعة وكانت تتحدث برجفة وبسرعة وربكة وتقول: الصحابية الجليلة عاتكة بنت زيد بعد زواجها من الزبير بن العوام، منعها من الخروج من البيت للصلاة بحجة غيرته، فذكرته بقول الرسول – صلى الله عليه وسلم-: (لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله ولكن ليخرجن تفلات، أي غير متعطرات).. فتركها تخرج للصلاة... فلماذا يا أبي تحاولون أن تضيقوا على النساء، وتمنعوهن لذة الإيمان والعبادة، وتحرموهن من حق لم يحرمه لا القرآن ولا الحديث؟! بعد انتهائها من هذه الكلمات كان الحنق والغضب قد تملكا كل جوارحي، فقذفتها بما كان قريبا من يدي، ولم أوفر شتيمة أو أي مفردة تحقير للمرأة إلا وقلتها ردا عليها.. ابنتي هيا تعتقد أن المسألة دين وإسلام، وهي لا تعلم أن الموضوع موضوع تجبر وذهنية اعتادت على عبودية المرأة.. بحجة الغيرة وصيانتها والخوف عليها.

هل يقول أحدكم إنني تمكنت من أن ألجم شيخة أو أسكت شقيقتها الأخرى، عن الصدوح برأييهما؟ لقد شتمت وصرخت ومن ثم ضربت وعاقبت.. لكنهما كانتا كل يوم تخرجان عليّ بقصة جديدة ينتهزان أي مناسبة لسردها، وكانتا دوما تحاولان الضغط كلما سنحت لهما الفرصة ليوضحا أن فهمي أنا وثلة ممن نتحكم في الخطاب العام خاطئ.. معتقدتين أن المسألة فهم ولم يعلما أنها

مسلمات كبرنا عليها.. وعقيدة نؤمن بصحتها.. وعادات لا يمكن المساس بها.. وتقاليد لا نسمح بهزها.

في هذا الموقف العصيب يجيد عقلي فن التفكير والاستنتاج، فكم أجد تشابها بين موقف ابنتي، وموقف ذلك الشاب عندما كنت أحقق معه حيث كان يحاول طوال شهور أن يقنعني بأنه مؤمن لكنه غير معني بتفسير الإسلام وفق وجهة نظر معينة تصادر حرية الآخرين وتحط من قدر أي إنسان. واليوم في هذا الموقف العصيب عقلي يظهر لي أن موقف ذلك الشاب يتطابق مع مواقف وآراء ابنتي في داخل منـــزلي.. فيا لهول هذا التغير الذي حدث! ويا لهول هذا التحول الذي يجرفنا، أردنا أو لم نرد!

أذكر ابنتي شيخه كلما شاهدتني تبتسم فأقطب جبيني في وجهها تلوح في مخيلتي أحاديثها الماكرة والتي تحاول من خلالها أن توجه نحوي رسالة عن مكانة المرأة وقوتها. ففي مرة كنت جالسا مع أبنائي أتحدث ساخرا من أولئك الذين يرفعون شعار حقوق المرأة.. قالت: أبي هل تعلم أنه في معركة بدر عندما أوشك المسلمون على الهزيمة، وانكشفوا أمام عدوهم، فر الكثير من الصحابة من أرض المعركة، ولم يبق مع الرسول إلا ثلة قليلة من صحابته.. وكان امتحانا عظيما، هل تعلم يا أبي أن امرأة كانت تدعى أم عمارة، واسمها نسيبة بنت كعب، وقفت تحمي وتذود عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتدافع عنه.. حتى أنه قال: ما التفت يميناً ولا شمالا يوم أحد إلا وجدت نسيبة بنت كعب تقاتل دوني، بل إن الرسول سمعها وهي تحث ابنها عبد الله بن زيد في تلك المعركة وتقول له: انهض بني وضارب القوم، فقال: النبي عليه السلام: ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟! وبعد المعركة ظلت عاما كاملا تداوي جراحها، وكان

الرسول يسأل عنها دائما قائلا: كيف حال نسيبة؟ أبي: لم تكن هذه المرأة تطبب المرضى والمصابين في المعركة وحسب، إنما كانت أيضا تشارك مشاركة فعلية في القتال والدفاع عن الرسول وبالتالي عن الإسلام، ولم تهرب في الوقت الذي هرب فيه الكثيرون! وتوجد سيدة أخرى هي السميراء بنت قيس، كان لديها ولدان اسم الأول النعمان والثاني سليم قتلا في معركة أحد، لكن العجيب عندما قيل لها إن ولديك قد قتلا.. قالت: ما عنهما سألت.. اخبروني ما فعل رسول الله.. فقيل لها.. هو على خير ما تحبين، قالت: أرني أنظر إليه؟ فأشار إليه فقالت ووجهها تهلل ونسيت مصيبتها في ولديها: كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله. والشواهد على قوة المرأة وتميزها كثيرة جدا، وكتب التاريخ تطفح بهذه المثل، لكنه تاريخ مهمل، والآن يا أبي هل هؤلاء النسوة يدخلن في تصنيفاتك واحتقارك للمرأة؟! فأزمجر وأخرج من المنــــزل، وأنا أسمع إخوتها يهددونها بالضرب لأنها عكرت مزاجي.

* * *

العقل.. المعركة الأخيرة

قبل يوم من خروجي في هذه الرحلة البرية المشؤومة قالت هيا وشيخه: أبي إنك تكرهنا... إنني أشارف على الموت الآن ولا شك فتجمعت عليٌّ آلامي الجسدية والنفسية، ومنذ أن علقت بهذه الكثبان أعاني ولا أعرف إلا الألم يجتاحني ويعذبني.

قبل ساعات من خروجي لهذه الرحلة المشؤومة.. اقتربت مني ابنتي هيا وشقيقتها وقالتا: أبي ألن يأتي يوم نذهب جميعنا في رحلة برية معك؟ رفعت رأسي قائلا: هذا الذي ينقصني، رعايتكم حتى في البر! قالت شيخه: صدقني ستفاجأ بمواهبنا ومهاراتنا، أرد عليها: آه لو أشقاؤك هنا كنت نعمت بصحبتهم ومرافقتهم.. فتقول هيا: أبي نحن هنا، فانظر إليها وأقول: أنت امرأة لا أكثر ولا أقل.. فتزم حواجبها بغضب وتقول: نعم امرأة وأفتخر أنني امرأة.. من أول إنسان آمن بمحمد ورسالته السماوية؟ إنها خديجة بنت خويلد، امرأة، ومن أول كائن يسفك دمه من أجل مبادئ الإسلام؟ إنها سمية وهي يا أبي امرأة.. ومن أول... فأصرخ في وجهها: أقسم بالله إنني لن أصمت.. وبعد عودتي سأعرف الطريقة التي من شأنها تعليمكما حدودكما.. هيا وشيخة: أباكما لن يعود.. إنه سيموت وسط هذه الصحراء التي لا ترحم.. لعل الرب أراد خلاصكم مني.

رأسي الذي طالما كان مرفوعا أصبح نعفرا بالتراب، والرمل وسط أنفي وداخل أذني.. هذا هو وجهي أحركه وسط هذه

الصحراء.. أنظر إلى شروق الشمس بعين واحدة بوهن شديد نصف فمي في التراب.. أراقب الشمس وهي تتحول في شروقها إلى اللهب.. عجيب أن هذه العين ووسط هذا الجفاف بقيت لديها دمعة تسكبها.. ترجو هذه الشمس أن تتوقف ألا تشرق.. لأنني سأموت.. أين أبنائي خالد وسعود ومشاري؟ مؤكد أنهم الآن مشغولو البال.. لا بد أن يكون خالد قد قطع زيارة العمل التي يقوم بها إلى اليابان، وسعود لا بد أن يكون قد عاد الآن من لندن، قاطعا دراسته، ومشاري لا بد أن يكون قد عاد هو أيضا من رحلته السياحية في ديزني.. مؤكد أنهم جميعا الآن يقومون بالبحث عني.

آهـــ كم هو الموت قاس... هذه هي الشمس تلتهب بسرعة عجيبة، إنني أودع الحياة دون أن أكون قد توقعت نهاية بمثل هذا الجنوح وبهذه الصورة وهذا البطء، أرفع عيني إلى السماء فأجد الطيور الجارحة تملؤها ولا أعلم ماذا تنتظر؟ أو ما الذي يمنعها من الانقضاض علي؟.. وتكمل رياح الصحراء القصة فتهب بعنف فتطفئ حلمي ومعها عيني المتبقية، فلم أعد أشاهد شيئا.. الآن أعود أنـــزوي داخل نفسي، فأنظر فيها. أخلد للنوم الأبدي إذا لأترك رأسي بهدوء في المكان الذي يليق به في التراب... لا وقت الآن للشموخ للكبرياء أو التعالي.. ليس المكان ملائما للكذب والمظاهر والتفاخر.. إنه الموت ببساطة... أنام أو أموت. بدأ عقلي ينقلني من مرحلة سرد الذكريات المؤلمة إلى إسماعي الأصوات.. إنه بهذا الفعل يتحد مع الصحراء في الإمعان في تعذيبـــي، هي تطفئ عيني، وهو يمارس الإيهام لي.. فهذا صوت ذئب يعوي أو كلب ينبح لا فرق... هذا صوت طائرة أو سيارة ليس هناك فرق.. لن أسمح لعقلي الآن

بالسيطرة عليّ مرة أخرى.. ماذا يريد هزيمة أكثر من هذه؟ انهيارا أوضح من هذا؟ استسلاما أبلغ من هذا؟

يسمعني عقلي صوت محرك سيارة عنيف.. لن أصغي لك أيها العقل.. لن أؤمن بآذان امتلأت بالرمال، إنه صوت داخلي نابع من عقلي.. لقد استسلمت لك أكثر من ستة أيام. الآن أنا من يقرر كذبتك.. لقد سيطرت عليّ طوال تلك الأيام.. الآن لا لا.. أسمع أصوات نساء.. أضحك من دهائك أيها العقل. ستة أيام وأنت تموج بي، تقذف بي وأنا.. حائر.. لن تغريني. طوال ستة أيام والتخيلات وظيفتك الوحيدة.. التي تمارسها عليّ حتى أنني تعبت.. الآن حان أن أكذبك.. أو على الأقل أطلبك التوقف.. تبا لك دعني أموت بهدوء.

ما هذا الملمس الناعم الذي يحمل رأسي من وسط كثبان الرمل؟ نعم أنها يد تبعد التراب من على وجهي.. يد رقيقة حانية رطبة دافئة... فيها ظل وحياة.. اخضرار وأنهار... آه أيها العقل كم تبتعد بي.. كم أنا حربك الوحيدة.. حتى هذا الشعور الجميل لا أصدقه.. وأعرف إنها المعركة الأخيرة التي تخوضها معي.. أيها العقل قبل أن يأتي الموت هو الآخر ليمارس معي ألعابه القذرة.

هذه اليد مضمخة بالماء تجوس على رأسي فتمر وتطفئ في كل مكان نارا متوهجة من الحرارة.. ثم إنها تلامس وجهي بالماء ملامسة فيمتص جلدي المتيبس الماء.

أسمع صوت ابنتي هيا وهي تصرخ وتقول احضروا المزيد من الماء والأقمشة تبا لكم... أسمع أحدهم يقول: يا طويلة العمر.. هذه شيخة وصلت.. وأشعر بملمسها، وأسمعها تقول: لا أريد تحريكه الآن لا بد من التأكد من عدم وجود كسور.. يبدو أن السيارة قد انقلبت من أحد الكثبان الرملية.. نعم يده ورجله مكسورتان. أضحك...

أضحك... أيها العقل التافه صحيح أن ابنتي شيخة كانت تريد دراسة الطب، ولكنني منعتها بسبب عدم رغبتي في اختلاطها بالرجال... فكيف تأتي وتقيم حالتي وتقول إن يدي ورجلي مكسورتان.. وأنا أيضا لم أشعر بألمهما؟! يا لك من كاذب.. توهمني بهذه الأصوات من أجل أن أتشبث بالحياة بالسراب، الآن أريد أن أموت، ثم أيها العقل تسمعني صوت هيا، وهي مجرد فتاة لن تتحمل قسوة الصحراء! كان من المفروض أن أسمع صوت أبنائي خالد ومشاري وسعود، أو واحد منهم على الأقل، من هي هيا أو شيخه؟ إنهما مجرد نساء لا يعرفن الصحراء أو التعامل مع الرجال! يرد علي عقلي ويسمعني صوت شيخه وهي تصرخ في أحدهم: أضعتم الوقت في البحث في الجهات الشمالية وهو هنا بالقرب منكم، لا يبعد عنكم أكثر من عشرة كيلو مترات! فيرد صوت أعرفه لكنني لا أذكره: يا طويلة العمر الجهة الشمالية هي التي يضيع فيها الناس عادة، كثبانها متحركة وشاسعة ورياحها مستمرة، ولم نتوقع أبدا أن يكون قد انعطف في هذه الجهات، فما بالك الضياع هنا، واليد الرطبة تضع نقاطا من الماء على عيني وتغسل وجهي برفق دون ماء كثير وأنا أفتح فمي كالحرباء ألتمس الماء أيها العقل التافه.. هل من الممكن أن تتوقف؟ أنت كاذب.. كاذب... أعرف أن كل هذا غير صحيح إنه وهم وسراب، فيرد عقلي مرة أخرى بإسماعي صوت امرأة تقول: أنا أقترح أن ننقله إلى بيتنا (الشعر) حتى تأتي مساعدة... وأسمع صوت شيخه، والله ما قلت إلا الرأي الصحيح يا أم مهيلة.. حسنا لننقله إلى البيت الشعر، بعيدا عن الرياح والأتربة.

وكأني أحلم.. بل إنني أحلم لكن لدرجة قرب هذه الأحلام من الواقع تخيلتها واقعا فعلا.. ويغمى علي ويتواصل البث العقلي

واستمتاعه في إسماعي الأصوات. ولبرهة من الزمن اكتشفت أنني لم أسمع إلا أصواتا أنثوية حتى الآن.. وكأني أتحول من مرحلة التخيل إلى مرحلة رسم معالم لهذا الخيال،.. فأشاهد ابنتي هيا وهي ممسكة بهاتف خلوي، وتتحدث وتنظر إلى أوراق أمامها وتشرح.. وأشاهد ابنتي شيخه واقفة أمام سيارة ضخمة وتنظر في ساعتها.. وأسمعها تخاطب أحدهم قائلة: هل تشاهد تلك المرأة؟ إنها سيدة من سكان الصحراء تدعى أم مهيلة، لقد عرفت أين موقع أبي بالتحديد، فقط بنظرة خاطفة إلى السماء، يا لكم من أغبياء فعلا.. أتحسر على نفسي، أقول: العقل عندما يكذب يكون مقنعا لدرجة الجنون.. تلك المرأة التي تشيد بها ابنتي شيخه، وتدعى أم مهيلة، إذن هي سيدة المكان وصاحبة بيت الشعر.. أشاهد طيفها وهي تقرب الماء والأقمشة.. وإلى جانبها بنت صغيرة. عقلي لا يهمل شيئا حتى التفاصيل الدقيقة يصورها.. يحاول أن يقنعني بحقيقة من الوهم... إن كل هذا واقع.. وأنا قد تعايشت مع هذا العقل لأكثر من ستة أيام، لم أذق خلالها إلا الذكريات والأوهام والأسف. حسنا أيها العقل ليت كل هذا حقيقة.. ليت أبنتي شيخه تدرس الطب.. ليت أبنتي هيا تعرف استخدام الهاتف عبر الأقمار الصناعية.. ليت بناتنا يعرفن قيادة السيارة.. ليتهن يعرفن تحديد المواقع في الصحراء.. ليتهن.. ليتهن...هل ارتحت الآن أيها العقل؟ حسنا... أنا أستسلم.. فأين هو الموت اللعين؟

* * *

أفتح عيني الآن فلا أشاهد سوى البياض يغطي المكان، وبلا أدنى شك إنني قد مت، وإنني الآن في مكان لا يجده إلا الأموات، وفي موقع لا يصله إلا المنفيون عن الحياة، وفي اللحظة نفسها أشعر بتيبس حلقي، وجفاف فمي، وما إن افتح عيني أكثر وأدير رأسي حتى أشاهد هذا البياض يغمر المكان.. بجهد أوجه بصري فتتداخل الصور.. وأشعر بصداع.. أعود برأسي المثقل لجهة اليسار فأشاهد يديَ معلقتين ومتصل بهما عدد من الأنابيب الصغيرة.. حلقي وشفتي متيبسان.. وهناك ألم في جسدي كله يعصف بي، وصداع رأسي يشلني تماما، والآن أحس وبقوة ألم الكسر في رجلي ويدي وأشعر بضيق في تنفسي.. وتعب في صدري. بعد فترة من الزمن، وأنا أعيش هذه الدوامة المحملة بالوجع، شاهدت جهازا صغيرا (ريموت كنترول) معلقا بيدي، جعلت أدوس على أحد أزراره العديدة الصغيرة.. فارتفع بي السرير فأصبحت أشاهد من هو أمامي. لم أميز المنظر.. نظري يقوى ويخف.. لا أعلم كم ظللت من الوقت أحاول أن أتبين المنظر الذي أمامي، وكأني أنظر إلى شيء واهن.. أعدل وضع رأسي وأنا أصوب نظري أكثر... يدلف عدد من الطبيبات فيقطعن محاولاتي.. وأسمع إحداهن تتساءل عن سبب وجود آخرين في غرفتي، فترد عليها إحداهن قائلة: إنهما كما تبدوان نائمتين، وتقول: أخرى إنهما مرهقتان جدا، فقصتهما قصة، لم تناما منذ ثلاثة أيام.. وهن

يواصلن حديثهن يغادرن الغرفة..أسمع إحداهن تقول: الحمد لله أن كلل الله جهودهما بالنجاح.. ما شاء الله عليهما.. عدت لمحاولاتي رؤية ذلك الشكل الباهت الذي أمامي.. والصورة مشوشة.. وضبابية.. وبدأت مع مرور الوقت تستقر.. بدأت تتضح... بدأت عملية الإبصار تعود إلى.. وبدأت المعالم والأشكال تتضح... ورأيت أخيرا ابنتي هيا وشيخه تغطان في سبات من النوم العميق أمامي.. وببساطة لم يكن عقلي يكذب أو يوهمني، بل كان يقول الحقيقة: شيخه وهيا.. قادتا جهودا ذاتية مضنية للبحث عن أبيهما القاسي المحارب للمرأة المفقود في الصحراء!

* * *